الإمارات العربية المتحدة
وزارة التربية والتعليم

المدرسة الإماراتية

2021-2022

إرنست همنغواي

الشّيخُ والبحرُ

رواية

ترجمة:
د. علي القاسمي

الصف
10

الطبعة الرابعة
مقرر الصّف العاشر

العام الدراسي
1443-1442هـ 2022-2021م

الشَّيخُ والبَحْرُ

رواية

إرنست همنغواي

تَرجمَةُ: الدّكتور علي القاسمي

تأليف: إرنست همنجواي

ترجمة: الدّكتور علي القاسمي

نواتج التعلم

- يُحَلِّلُ المُتَعَلِّمُ روايَةً فَنِّيَّةً مُوَضِّحًا فِكْرَتَها، وَخَصائِصَها، وَتَطَوُّرَ أَحْداثِها، وَمُقَوِّماتِ شَخْصِيّاتِها.
- يُبَيِّنُ المُتَعَلِّمُ سُرْعَةَ سَيْرِ الأَحْداثِ، وَالذِّكْرَياتِ الَّتي يُفَكِّرُ فيها شُخوصُ النَّصِّ، وَإِشاراتِ ما يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ في المُسْتَقْبَلِ، مُقَيِّمًا تَأْثيرَ هذِهِ الخَياراتِ في إِحْداثِ التَّوَتُّرِ وَالمُفاجَأَةِ.
- يُحَلِّلُ المُتَعَلِّمُ تَطْويرَ الكاتِبِ لِلزَّمَنِ مِنْ خِلالِ تِقْنِيَةِ الاسْتِرْجاعِ.

تَصدير المُتَرجِم

مَكانَة «الشّيخ والبحر» في الأدب العالميّ:

نَشرتْ مجلّة لايف (Life Magazine) الأمريكيّة قصّة «الشّيخ والبحر» للكاتب (إرنست همنغواي) في عددها الصّادر بتاريخ 1952/9/1م، فباعت أكثر من خمسة ملايين نسخة خلال يومَيْن فقط. وفي السّنة التّالية 1953م، مُنِحَتْ أرفعُ جائزة أمريكيّة أدبيّة، جائزة البوليتزر إلى (إرنست همنغواي) لقاء هذه القصّة، كما أسبغت عليه الأكاديميّة الأمريكيّة للآداب ميداليّة الاستحقاق للرّواية. وفي سنة 1954م، حاز (إرنست همنغواي) جائزة نوبل، وورد في قرار لجنة جائزة (نوبل) سببُ اختيار (همنغواي):

«... لإتقانه فنّ السّرد، الّذي برهن عليه مؤخّرًا في «الشّيخ والبحر» وللتّأثير الّذي مارسه على الأسلوب المُعاصِر..».

وتَمْنح لجنةُ جائزة (نوبل) جائزتَها -عادةً- للأديب على مُجمل أعماله، ولا تُسمّي عملًا بذاته.

وفي سنة 1958 أَنْتجتْ هوليوود القصّةَ في فلم من إخراج (جون ستيرجس John Sturges)، وبطولة (سبنسر تريسي

(Spencer Tracey)، واعتبر النّقّاد السّينمائيّون الدّورَ الّذي أدّاه (تريسي) في هذا الفِلم من أعظم الأدوار في تاريخ السّينما الأمريكيّة، فرُشِّحَ على إِثْره لنيل جائزة الأوسكار، وتوالى إنتاج الأفلام السّينمائيّة والتّلفزيونيّة الّتي تُشَخِّص هذه القصّة، ومن أهمِّها الفلم الّذي أخرجه (جود تايلور Jud Taylor) عام 1990، وقام ببطولته (أنطوني كوين Anthony Quinn)، الحائز على جائزة الأوسكار، والّذي قام ببطولة أفلام رائعة مثل فِلم (زوربا ذه كريك) وفِلم (الرسالة)، وفِلم (عمر المختار)، وغيرها. ومن هذه الأفلام الّتي تُشخّص قصّة «الشّيخ والبحر» فِلم (الكسندر بتروف Aleksander Petrov) بعنوان (Le viel Homme et la Mer).

كيف كتب (همنغواي) الرّواية؟

كان (همنغواي) يعيش مع زوجته الثّالثة (مارثا غلهورن Martha Galhorn)، وقد تزوّج أربع مرات بالقُرْب من (هافانا) في (كوبا) ابتداءً من سنة 1940م، وكانت إحدى هواياته المُفضَّلة هي صيد السّمك بمركبه الشِّراعي المُسَمّى (بيلار Pilar). واستخدم (همنغواي) صيّادًا كوبيًّا مُتقاعدًا اسمه (جورجيو فوينتس) للعناية بمركبه الشِّراعيّ. وعندما مات (همنغواي) سنة 1961 بادر (فوينتس) إلى إهداء قارب (همنغواي) إلى الحكومة الكوبيّة.

ويتّفق النُّقّاد على أنّ (همنغواي) صَوّر بطل قصّة «الشّيخ والبحر» على غرار الصّياد (فوينتس)، أو أنّه سمع القصّة منه، وكان (فوينتس) قد ولد في جُزر (الكناري) سنة 1897، وتوفّيَ مُصابًا بالسّرطان سنة 2002 بعد أن عاش ما ينوف على 104 سنوات، دون أن يقرأ «الشّيخ والبحر» حتّى ولا في ترجمتها الإسبانيّة.

الفهرس

يتم تعريف المحتوى على تطبيق التعلم الذكي

الفصلُ الأوّلُ 11

أسئلةُ الفصلِ الأوّلِ 20

الفصلُ الثّاني 23

أسئلةُ الفصلِ الثّاني 40

الفصلُ الثّالثُ 43

أسئلةُ الفصلِ الثّالثِ 60

الفصلُ الرّابعُ 63

أسئلةُ الفصلِ الرّابعِ 83

الفصلُ الخامسُ 85

أسئلةُ الفصلِ الخامسِ 108

الفصلُ السّادسُ 109
أسئلةُ الفصلِ السّادسِ 134
الفصلُ السّابعُ 137
أسئلةُ الفصلِ السّابعِ 160
الفصلُ الثّامنُ 163
أسئلةُ الفصلِ الثّامنِ 182

الفصلُ الأوّلُ

كان شَيخًا يَصيد السَّمك وحدَه بمركَبٍ شِراعيٍّ صغير في «مَجرى الخليج»، وقد أمضى -حتّى الآن- أربعة وثمّانينَ يومًا دون الحصول على سَمكةٍ واحدة، وفي الأيّام الأربعينَ الأولى كان معه صَبيٌّ. ولكنْ بعد أربعينَ يومًا بلا صيدِ سمكة، قال والِدا الصَّبيّ لابنهما: إنَّ الشّيخ قد أُصيب -بصورةٍ أكيدةٍ ونهائيّةٍ- بِـــ(النَّحْس)، وهو أردأُ أنواع سوء الحَظّ؛ فانتقل الصَّبيُّ -بناءً على أوامرهم- إلى قاربٍ آخر اصطاد ثلاث سَمكاتٍ جيِّدةٍ خلال الأسبوع الأوّل. كان الصَّبيّ يشعر بالحزن عندما يرى الشّيخ يعود كُلَّ يومٍ ومركبه خالٍ، فكان دائمًا يُسرِع ليساعده في حمل الخيوط الملفوفة، أو الخطّاف والحربة، أو الشِّراع المَطويّ حول السّارية، وكان الشِّراع المُرقَّع بأكياسِ الطَّحين، والمَطويّ، يبدو مثل رايَةِ هَزيمةٍ دائمةٍ.

كان الشّيخ نحيفًا أَعْجَف، وله تجاعيدُ عميقةٌ في قَفا رقبته، وعلى خَدَّيه بُقعٌ بنيّةٌ هي نوعٌ من سرطان الجلد الّذي سَبَّبته الشَّمس من جراء انعكاسها على البحر في تلك المنطقة الاستوائيّة؛ وانتشرتْ تلك البقع على جانِبَي وجهه، وعلى

يدَيْه آثارُ جروحٍ عميقة خلّفها جَرُّ الأسماك الثَّقيلة، ورفْعُها بالحبال، ولكنْ لَم يكُنْ أيّ من آثار الجروح هذه غَضًّا حديثَ العهد، فقد كانت قديمةً قِدَمَ التّآكلات في صَحراءَ خاليةٍ من الأسماك.

كلُّ شيء فيه كان قديمًا، ما عدا عينيه، فقد كان لونُهما لونَ البحر، فَرِحتَيْن، ولا أثر للهزيمة فيهما.

قال له الصَّبيّ وهما يصعدان الضِّفة من الموضع الّذي رُفع إليه المركب:

– «سنتياغو، بإمكاني الذِّهاب معكَ مَرَّةً أُخرى، فقد جنينا بعض النُّقود».

كان الشّيخ قد عَلَّمَ الصَّبيَّ اصطيادَ السَّمك، وكان الصَّبيُّ يحبُّه.

قال الشّيخ:

– «لا، أنتَ الآن مع قاربٍ محظوظ، ابقَ معهم».

– «ولكن تذكَّرْ كيف أمضيتَ سبعة وثمّانين يومًا دون أن تصطاد سمكة، ثمّ اصطدنا سمكات كبيرة كُلَّ يوم طَوالَ ثلاثة أسابيع».

قال الشّيخ:
- «أذكرُ ذلك، أعرفُ أَنَّكَ لم تتركْني بسبب شَكِّكَ».
- «إنَّ أبي هو الّذي أَجبرني على تركِكَ، وأنا ولدٌ، ويجب أنْ أُطيعه».

قال الشّيخ:
- «أَعلمُ ذلك، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ تمامًا».
- «لم تكُنْ له الثِّقة الكافية».

قال الشّيخ:
- «لا، ولكنْ نحن كُنّا على ثقةٍ، أليسَ كذلك»؟

قال الصَّبيّ:
- «نعم، هل لي أنْ أقدِّم إليكَ قهوةً في مقهى الشُّرْفة ثمّ نأخذ الأدوات إلى المنزل».

قال الشّيخ:
- «ولِمَ لا؟ فهذا جارٍ بين الصَّيّادين».

جلسا في الشُّرْفة، وراح عَددٌ من الصَّيّادين يهزأ بالشّيخ، ولم يغضب هو، وكان آخرون -من بين الصَّيّادين الأكبر سنًّا- ينظرون إليه بحزن، ولكنَّهم لم يُظهِروا ذلك، وإنّما

كانوا يتحدَّثون بِلُطف عن التّيار والأعماق الّتي أَلقوا فيها خيوطهم، وعن الجوّ الرّائق المتواصل، وعمّا رأوه.

وكان الصَّيّادون الّذين أصابوا نجاحًا ذلك اليوم قد عادوا، وشَقّوا بطون أسماكهم من نوع المَرلين، وحملوها مُنبسطةً على لوحَيْن خشبيَّيْن، وتحت طرف كلِّ لوح يترنّح رَجُلان في اتِّجاه دار السَّمك، حيث ينتظر الصَّيّادون وصول شاحنة الثَّلج؛ لتنقل الأسماك إلى السّوق في (هافانا)، أمّا الّذين اصطادوا أسماك القِرْش فقد أخذوها إلى مصنع سمك القِرْش الكائن على الجانب الآخر من الخليج حيث تُرفَع بآلات خاصّة، وتُزال أكبادُها، وتُقطَع زعانُفها، وتُسلَخ جلودُها، وتُقطَّع لحومُها على شكل قَديد لتمليحها.

وعندما تكون الرّيح شرقيّة تهبّ على المرفأ رائحةٌ من مصنع سمك القِرْش؛ أمّا اليوم فليس هناك سوى رائحة خفيفة؛ لأنّ الرّيح تراجعتْ إلى الشَّمال ثمّ همدت، فصار الجوُّ، على الشُّرْفة مُشمِسًا سارًا.

قال الصَّبيّ:

– «سنتياغو»

قال الشّيخ:

- «نعم»، وهو يفكِّر في السَّنوات السّالفة.
- «هل أستطيع أنْ أَخرج، وأجلب لك السّردين ليوم غد»؟
- «لا، اِذهَبْ والعَبْ (البيسبول)، فمازال بإمكاني أن أَجدّف القارب، وسيرمي (رخليو) الشَّبكة؛ للحصول على السّردين».
- «أُحِبُّ أن أَذهب لجلب السّردين، فإنْ لم أستطِع الصَّيد معكَ، فإنّي أودّ أن أخدمكَ بطريقةٍ ما».

قال الشّيخ:

- «اشتريتَ لي ما أحتاجُه، وقد أصبحْتَ رجلًا».
- «كَمْ كان عُمري عندما أخذتَني معكَ في القارب أوّلَ مرَّة»؟
- «خمس سنوات، وكنتَ على وشك أنْ تُقتَل عندما رفعْتُ السّمكة إلى القارب وهي ما تزال قويّة، وكادت تُهشّم القارب قِطَعًا، فهل تذكر ذلك»؟
- «أستطيع أن أتذكَّر ذيلَها وهو يلبط، ويخبط، والمقاومةَ العنيفة، وضجّةَ الضّرب بالهراوة، أَستطيع أن أتذكَّر كيف رَميتني إلى مُقدَّمِ القارَب حيث الخيوط الملفوفة

النّديّة، وشعرتُ أنَّ القارب كُلَّه يرتجف، ودويّ ضربك لها بالهراوة كما لو كنتَ تقطِّع شجرةً بفأس، والرّائحة العذبة لِدَمها المتساقط عَليَّ».

- «هل تستطيع أن تذكر ذلك حقًّا، أَمْ أنّني أخبرتُكَ بذلك»؟
- «أَتذكَّر كلَّ شيء منذ أوَّل يومٍ ذهبنا للصّيد معًا».

ونظر الشّيخ إليه بعينيه اللَّتَيْن لوَّحتْهما الشَّمس، والطّافحتين بالمحبَّة والثِّقة، وقال:

- «لو كنتَ وَلَدي لغامرْتُ بأخذِكَ معي إلى الصَّيد، ولكنَّكَ ابن أبيك وأمّك، وأنتَ الآن في قاربٍ محظوظ».
- «أَتسمح لي بجلب السّردين؟ وأعرف أين أستطيع الحصول على أربع قِطع من الطُّعْم كذلك».
- «لَديَّ قِطع الطُّعْم الّتي بقيت اليوم، فقد احتفظتُ بها بالملح في الصّندوق».
- «دَعْني أجلب لك أربع قِطع طريّة».

قال الشّيخ:

- «واحدة».

لم يتلاشَ أملُه وثقتُه أبدًا، بل أخذا يَتجدَّدان الآن، كما ينتعشان عند هبوب النَّسيم.

قال الصَّبيّ:

- «اثنتان».

قال الشّيخ موافِقًا:

- «اثنتان، أنتَ لم تسرقهما»؟

قال الصَّبيّ:

- «قد أفعل ذلك، ولكنّي اشتريتُ هذه القِطع».

قال الشّيخ:

- «شُكرًا».

وكان أبسط مِن أَن يتساءل بعد أن وصلت به الحال إلى المهانة، ولكنّه أحسّ بأنَّه بلغ تلك الحال، ويعرف أنَّ ذلك ليس مُخزيًا، ولا يُسبِّب له خسارة في عِزّة النَّفس الحقيقيّة.

وقال:

- «غدًا سيكون يومًا طَيِّبًا بفضل هذا الّتيار».

فسأله الصَّبيّ:

- «إلى أين ستذهب غدًا»؟

- «بعيدًا جِدًّا لكي أعود عندما يتغيَّر اتّجاه الرّيح، أريد أن أخرج قبل مطلع الصّباح».

قال الصَّبيّ:

- «سأحاول أن أجعل مُعلِّمي يعمل بعيدًا، حتّى إذا ما اصطدتَ سمكةً كبيرةً حقًّا، نستطيع أن نأتي لمساعدتك».
- «إنَّه لا يُحبُّ أن يعمل في مكانٍ بعيدٍ جدًّا».

قال الصَّبيّ:

- «هذا صحيح، ولكنَّني سأرى شيئًا لا يستطيع هو رؤيته، مثل طيرٍ يصطاد شيئًا ما، وأجعله يتَّجه بعيدًا وراء الدّولفين».
- «هل عيناه بذلك الضّعف»؟
- «إنّه أَعْمى تقريبًا».

قال الشّيخ:

- «هذا غريب؛ لأنَّه لم يذهب قَطّ لصيد السَّلاحف، وهذا ما يقتل العينَين».
- «ولكنَّكَ أمضيْتَ سَنواتٍ في صيد السّلاحف خارج ساحل البعوض، وماتزال عيناك جيِّدتَين».
- «إنَّني شيخٌ غريبٌ وَفريدٌ إلى حدٍّ ما».
- «ولكنْ، هل أنتَ قويّ الآن بما فيه الكفاية لصيد سمكةٍ

كبيرةٍ حقًّا»؟

- «أظنُّ ذلك، وهناك حيَل عديدة».

قال الصبيّ:

- «لنأخذ الأدوات إلى المنزل، حتّى أتمكَّن من أخذ الشَّبكة والذَّهاب لصيد السّردين».

رفعا العُدّة من القارب، فحمل الشّيخ السّارية على كتفه، وحمل الصَّبيّ الخطّاف والحربة مع مقبضها، إضافة إلى الصَّندوق الخشبيّ الّذي يضمّ الخيوط البنيّة المجدولة جيّدًا والمطويّة، وكان الصَّندوق -وفيه الطُّعْم- في مؤخَّر المركب مع الهراوة الّتي تُستعمَل للسَّيطرة على الأسماك الكبيرة بعد اصطيادها ورفعها إلى المركب.

أسئلةُ الفصلِ الأوّلِ

1. ما الّذي يوحي بِهِ قَولُ الكاتبِ في وَصفِ الشِّراعِ: «وكان الشِّراع المُرقَّع بأكياسِ الطَّحين، والمَطويّ، يبدو مثل رايَةِ هَزيمةٍ دائمة».
2. قَدّمَ الكاتبُ وَصفًا للشّيخِ في الصّفحات (15–16)، اقرأ هذا الوصفَ ثُمّ تناقش مع زُملائكَ في الاستنتاجات الّتي قد يستنتجها القارئُ من هذا الوصف عن حياة الشّيخ وصفاته.
3. «ولكنْ لم يكُنْ أيّ من آثار الجروح هذه غَضًّا». ما الّذي تستنتجه من هذه العِبارة؟ وماذا نُسمّي هذا النّوعَ من التّعبير في عِلْمِ البلاغةِ؟
4. كيف تصفُ العلاقة بين (سانتياغو) وبين الصّبيّ؟ استخرج من النّصّ ما يدلّ على ما تقول.
5. كان الشّيخ محظوظًا جِدًّا في الصّيدِ قبل هذه الرّحلةِ، استخرج من النّصّ ما يُشير إلى ذلك.

6. كيف تصف مشاعرك حيال تصرّف الصّيّادين في الشّرفة حين جاء (سانتياغو) والصّبي، وجلسا؟ ولماذا اختلف سلوك الصّيادين الأكبر سِنًّا؟

7. «إنَّني شيخٌ غريبٌ وَفريدٌ إلى حدٍّ ما»، هكذا وصف (سانتياغو) نفسه، وَممّا قَرَأْتَهُ -حتّى الآن- هل تتوقّع أن يكون وصف (سانتياغو) لنفسه بذلك صادقًا وحقيقيًّا؟

8. قد تتضمّن عبارة (سانتياغو) السّابقة استشرافًا لِما سيحدث في الرّواية، وظّف مهارة التَّنَبّؤ لديك، وسجّل توقّعاتِكَ للنّهاية.

9. بِرأيِكَ، ما الأسباب الّتي منعت الشّيخ (سانتياغو) من اصطياد أيّة سمكة على مدى سبعة وثمانين يومًا من خلال قول الصّبي له: «ولكن تذكَّرْ كيف أمضيْتَ سبعةً وثمّانين يومًا دون أن تصطاد سمكة»؟

10. ما الّذي يُشيرُ إليه قول الصّيّاد (سانتياغو): «غدًا سيكون يومًا طَيِّبًا بفضل هذا الّتيار»؟

الفصلُ الثّاني

لن يسرق أحدٌ شيئًا من الشّيخ، ومع ذلك فمن الأفضل أخذ الشِّراع والخيوط الثقيلة إلى المنزل؛ لأنَّ النّدى يضرّ بها. وعلى الرّغم من أنَّ الشّيخ مُتأكِّدٌ تمامًا أنَّه لا أحد من الأهالي يسرق شيئًا منه، فإنَّه كان يرى في ترك الخطّاف والحربة في القارب إغراءاتٍ لا داعي لها.

سارا معًا في الطَّريق إلى كوخ الشّيخ، وولجاه من بابه المفتوح، أسند الشّيخ السّارية وشراعَها المطويَّ إلى الحائط، ووضع الصَّبيُّ الصَّندوق وبقية العُدّة بجانبها، وكان طول السّارية بطول الغرفة الوحيدة في الكوخ تقريبًا، وكان الكوخ مَبنيًّا من كَرَب النَّخيل الملكيّ الصَّلب المُسمّى غوانو، ويوجد فيه سريرٌ، ومنضدةٌ، وكرسيٌّ واحد، ومكانٌ على الأرضيّة التُّرابيّة للطَّبخ بالفحم، وعلى الجدران البُنّيَّة اللَّون الّتي برزت منها أوراقُ (الغوانو) الصَّلب المُسطَّحة المتشابكة، عُلِّقتْ هناك صورتان من مُخلَّفات زوجته، وكانت هنالك -من قَبل- صورةٌ مُلوَّنةٌ لزوجته مُعلَّقة على الجدار، ولكنَّه أنزلها؛ لأنَّ رؤيتها كانت تُشعِره بوحدةٍ أكبر، فوُضِعت على الرّفّ

في زاوية الكوخ تحت قميصه النّظيف.

سأله الصَّبيّ:

- «ماذا عندكَ من طعام»؟
- «قِدْرٌ من الرُّزِّ الأَصفر مع السَّمك، فهل تريد أن تأكل منه»؟
- «لا. سآكل في البيت.. أتريدني أن أوقد النار»؟
- «لا. سأشعلها فيما بعد.. أو قد آكل الرُّزَّ باردًا».
- «أتسمح لي بأخذ شبكة صيد السّردين»؟
- «طبعًا».

لم تكن هناك شبكة صيد السّردين، والصَّبيّ يذكر أَنَّهما قد باعاها، ولكنّهما كرَّرا هذه التَّمثيليّة الخياليّة كلَّ يوم، كما لم يكُنْ هناك قِدْرُ رُزٍّ أَصفر أو سمك، والصَّبيّ يعرف ذلك أيضًا.

قال الشّيخ:

- «خمسة وثمّانون رقم يجلب الحظَّ، كيف تشعر إذا رأيتَني وأنا أجلب في ذلك القارب سمكةً يزيد وزنها على ألف رطل»؟
- «سآخذ شبكة صيد السّردين، وأذهب لجلب السّردين... رجاء اجلسْ في الشَّمس عند المدخل».

- «نعم، لديّ جريدة الأمس، وسأقرأ أخبار (البيسبول)».

ولم يعرف الصَّبيّ ما إذا كانت قصّة جريدة الأمس خياليّة كذلك، ولكنَّ الشّيخ أخرج الجريدة من تحت فراشه، وقال شارحًا:

- «أعطاني إيّاها (بريكو) في مقهى (البوديغا)».
- «سأعود عندما أحصل على السّردين، وسأحفظ حصَّتي وحصَّتك سويَّةً في الثَّلج، ونستطيع اقتسامهما في الصَّباح، وعندما أعود، يمكنكَ أَن تخبرني عن (البيسبول)».
- «فريق (اليانكيين) لا يمكنه أن يخسر».
- «ولكنّي أَخشى فريق (هنود كليفلاند)».
- «لتكُن لديك الثِّقة في فريق (اليانكيين)، يا ولدي»!
- «إنَّني أَخشى كُلًّا من فريق (نمور ديترويت) وفريق (هنود كليفلاند)».
- «احترسْ، وإلّا ستخاف حتّى من فريق (حُمُر سنسناتي)، وفريق (جوارب شيكاغو البيضاء)».
- «اِقرأ الجريدة جيِّدًا، وأَخبرني عندما أعود».
- «أَتظنُّ أنّنا ينبغي أن نشتريَ بطاقةَ يانصيب تحمل الرّقم

خمسة وثمانين؟ فيوم غد هو اليوم الخامس والثّمانون».

قال الصَّبي:

- «يمكننا أن نفعل ذلك، ولكنْ ماذا تقول في الرّقم سبعة وثمّانين، فهو رقمك القياسيّ»؟
- «لا يمكن أن يحدث ذلك مرَّتَيْن، فهل تظنُّ أنَّك تستطيع أن تجد بطاقة يانصيب تحمل رقم خمسة وثمّانين»؟
- «يمكنني أن أطلب واحدة».
- «بطاقة واحدة تكلِّف دولارَين ونصف، فَمِمَّن يمكننا اقتراض ذلك المبلغ»؟
- «هذا أمرٌ سهل، أستطيع دائمًا أن أقترض دولارَين ونصف».
- «أظنُّ أنَّني ربما أستطيع ذلك أيضًا، ولكنَّني أُحاول ألّا أستدين، فأنتَ في البداية تستدين، ثمّ تستعطي».

قال الصَّبيّ:

- «تدفَّأْ، أَيُّها الشّيخ، وتذكّر أَنَّنا في شهر سبتمبر/أيلول».

قال الشّيخ:

- «هذا هو الشّهر الّذي تأتي فيه الأسماك الكبيرة، أيُّ شخص يستطيع أن يُصبِح صيّادًا في شهر مايو/أيار».

قال الصَّبيّ:

- «سأذهب الآن للحصول على السّردين».

وعندما عاد الصَّبيُّ، كان الشّيخ نائمًا في الكرسيِّ، والشّمسُ قد غربت، أَخذ الصَّبيُّ بطّانيّةَ الجيش القديمة من السّرير، ونشرها فوق ظهر الكرسيِّ وعلى كتفَي الشّيخ، فقد كانتا كتفَيْن غريبتَيْن، ما زالتا قويّتَيْن على الرّغم من الشّيخوخة، ومازالت الرَّقبة قويّة كذلك، ولم تظهر عليها كثيرٌ من التَّجاعيد عندما كان الشّيخ نائمًا ورأسه متدلّيًا إلى الأمام، وكان قميصه قد رُقِّع عدّة مرّات فأمسى مثل الشِّراع، وبهتت ألوان الرُّقَع فصارتْ لها عدّة ألوان مختلفة في ضوء الشّمس، ومع ذلك، فقد كان رأس الشّيخ هرمًا جدًّا، وعندما كانت عيناه مُغمضَتَيْن، بدا وجهه بلا حياة، واستقرت الجريدة على رُكبتَيْه، وكانَ ثِقلُ ذراعه يحبسها هُناك رغم نسيم المساء، وكانت قدماه حافيتَيْن.

ترك الصَّبيُّ الشّيخ هناك، وعندما عاد كان مازال نائمًا.

قال الصَّبيُّ وهو يضع يده على إحدى رُكبتَي الشّيخ:

- «استيقظْ، أيُّها الشّيخ».

فتح الشّيخ عينَيْه، وللحظةٍ بدا وكأنَّه يعود من مكانٍ بعيد، ثمّ ابتسم، وسأل:

– «ماذا لديك»؟

قال الصَّبيّ:

– «طعام العَشاء، سنتعشّى».

– «لستُ جائعًا جِدًّا».

– «هيّا كُلْ، لا تستطيع الصَّيد دون أن تأكل».

قال الشّيخ، وهو ينهض، ويأخذ الجريدة، ويطويها:

– «لقد فعلتُ ذلك من قبل».

ثمّ شرع في طَيِّ البطانيّة، فقال الصّبيّ:

– «أَبْقِ البطّانيّة عليك، لن تذهب إلى الصَّيد دون أن تأكل، مادمتُ حيًّا».

قال الشّيخ:

– «إذن، عِشْ عمرًا طويلًا، واعتنِ بنفسكَ، ما الّذي سنأكله»؟

– «فاصولياء سوداء، ورُزّ، وموز مقليّ، وشيء من اللّحم بالمَرَق».

وكان الصَّبيّ قد جلب الطعام في إناء سفرطاس معدنيّ ذي طبقتَيْن من مطعم الشُّرفة، وحمل مجموعتَيْن من سكّين وشوكة وملعقة في جيبه، وقد لُفَّت كلٌّ مجموعة بمنديلٍ ورقيّ.

– «مَن أعطاك الطَّعام»؟

– «مارتن، صاحب المطعم».

– «يجب أن أشكره».

قال الصَّبيّ:

– «لقد شكرتُه، لا داعي لأن تشكره أنتَ».

قال الشّيخ:

– «سأُعطيه لحم البطن من سمكة كبيرة، هل فعلَ هذا لنا أكثر من مرّة»؟

– «أظنّ ذلك».

– «إذن يجب أن أُعطيه أكثر من لحم البطن، فهو كثير الاهتمام بنا».

– «وأَرسلَ كوبي قهوة».

– «أُفضِّل القهوة في الحَرّارَة».

– «أعرف ذلك، ولكنَّ هذه القهوة معبَّأَة في أكواب

زجاجيّة، وسأعيد الأكواب».

قال الشّيخ:

- «هذا لطف كبير منك، أنأكل؟».

قال له الصَّبيُّ بلطف:

- «هذا ما كنتُ أدعوكَ إليه، لم أرغب في فتح السفرطاس حتّى تكون مُستعدًّا».

قال الشّيخ:

- «أنا مستعدٌّ الآن، كنتُ فقط بحاجة لغسل يدَيّ».

فكَّرَ الصَّبيّ: أَينَ غسلتهما؟ إنّ ساقية المياه في القرية على بُعد شارعَيْن من الطّريق، كان عليَّ أن أجلب الماءَ والصابونَ ومنشفةً جيِّدة، لماذا أنا عديم الانتباه؟ يجب أن آتيه بقميصٍ آخر، وسترةٍ للشّتاء، وحذاءٍ ما، وبطّانيّةٍ أُخرى.

قال الشّيخ:

- «اللّحم بالمَرَق ممتاز».

قال له الصَّبيّ:

- «أخبرني عن (البيسبول)».

قال الشّيخ مُنشرحًا:

- «الفائز في العصبة الأمريكيّة هو فريق (اليانكيّين)، كما قلتُ».

فأخبره الصبيُّ:

- «لقد خسروا اليوم».
- «هذا لا يعني شيئًا، إنّ (ديماجيو) العظيم هو نفسه مرَّةً أُخرى».
- «عندهم رجال آخرون في الفريق».
- «طبيعيٌّ، ولكنَّه هو الّذي يسبِّب الفَرق، في العصبة الأخرى، بين (بروكلين) و(فيلادلفيا)، يجب أن أختار (بروكلين)، ولكن أفكّر بعد ذلك بـــ(دِك سيسلر) وتلك القذفات العظيمة في ملعب المنتزه القديم».
- «ليس هنالك أبدًا مثل روعة تلك القذفات، لم أرَ مُطلَقًا أطول من قذفاته للكُرة».
- «هل تذكر الأوقات الّتي كان يرتاد فيها مطعم الشُّرفة؟ أردتُ أن أصطحبه معي إلى الصَّيد، غير أنَّني استحييتُ من دعوته، ثمّ طلبتُ إليكَ أن تدعوه، ولكنْ غلبَ عليك الخجل».

- «أعرف ذلك، كانت غلطةً كبيرة، من المُحتمل أنّه كان سيذهب معنا، وعندها كنّا سنتذكَّر ذلك طَوال حياتنا».

قال الشّيخ:

- «يعجبني أن آخذ (ديماجيو) العظيم معي للصَّيد، يقولون إنَّ والده كان صيّادَ سمك، وربَّما كان فقيرًا مثلنا، وهو يستطيعُ أنْ يفهمَنا».
- «لم يكُن والِدُ (سيسلر) العظيم فقيرًا قطّ، كان يلعب في المباريات الكبيرة عندما كان في مثل سنّي».
- «عندما كنتُ في مثل سنِّكَ، كنتُ أقف إزاء السّارية على ظهر سفينة شراعيّة مُبحِرة إلى إفريقيا، وقد رأيتُ الأُسود على الشّواطئ في المساء».
- «أعرف، أَخبرتَني بذلك».
- «هل ينبغي أن نتحدَّث عن إفريقيا أم عن (البيسبول)»؟

قال الصَّبيّ:

- «أُفضّل (البيسبول)، أخبرني عن (جون جيه ماكغرو) العظيم»، ونطق (خيه) بدلًا مِنْ (جيه).
- اعتادَ أن يأتي أحيانًا إلى مطعم الشّرفة كذلك في الأيّام السّالفة، ولكنَّه يصير خشنًا وأَجشَّ الصّوت وصعبًا عندما

كان يتعب، وكان مولعًا بسباق الخيل مثل ولعه بلعب (البيسبول)، وعلى الأقل، كان يحمل لوائح الخيول في جيبه في الأوقات جميعها، وكثيرًا ما يذكر أسماء الخيول في مكالماته الهاتفيّة».

قال الصبيّ:

– «كان مديرًا عظيمًا، يعتقد أبي أنّه الأعظم».

قال الشّيخ:

– «لأنّه كان يأتي إلى هنا معظم الأوقات، ولو استمرَّ (دورتشر) على المجيء إلى هنا كلّ سنة لَعَدّهُ أبوك أعظم المُديرين».

– «مَن هو أعظم مدير في الحقيقة، (لوكه)، أو (مايك غونزاليس)»؟

– «أظنّ أنَّهما متساويان».

– «وأَحسنُ صيّادِ سمك هو أنتَ».

– «لا، أعرف آخرين أفضل منّي».

قال الصَّبيّ:

– «ماذا جرى؟ هناك عدّة صيّادين جيّدين، وبعضهم صيّادون عِظام، ولكن لا يوجد مثلكَ».

- «شكرًا، أنتَ تُسعِدني، آمل ألّا أصادف سمكة ضخمة جدًّا بحيث تبرهن على خطئنا».
- «لا توجد مثل هذه السّمكة، إذا كنتَ لا تزال قويًّا كما تقول».

قال الشّيخ:

- «ربما لستُ قويًّا كما أظنّ، ولكنَّني أعرف عدّةَ حيَلٍ وعندي العزيمة».
- ينبغي أن تأوي إلى فراشكَ الآن، لكي تستيقظ نشيطًا في الصباح، سأُعيد الأشياءَ إلى مطعم الشُّرفة».
- «ليلة سعيدة إذن، سأوقظكَ في الصّباح».

قال الصَّبيّ:

- «أنتَ ساعتي المُنبِّهة».

قال الشّيخ:

- «العُمْر هو ساعتي المُنبِّهة، ولكنْ لماذا يستيقظ الشّيوخ باكرين جدًّا؟ ألأنّهم يُريدون يومًا أطول»؟

قال الصَّبيّ:

- «لا أدري، كلُّ ما أعرفه هو أنّ الأولاد الصّغار ينامون

نومًا عميقًا لوقت متأخِّر».

قال الشّيخ:

- «يمكنني أن أتذكَّر ذلك، سأوقظكَ في الوقت المناسب».
- «لا أحبُّ أن يوقظني هو، فهذا كما لو كنتُ أقلَّ شأنًا منه».
- «أعرف ذلك».
- «نَمْ جيّدًا، أيُّها الشّيخ».

خرج الصَّبيُّ، وكانا قد أكلا بلا مصباحٍ على المنضدة، وخلع الشّيخ ثيابه، وذهب إلى السَّرير في الظّلام، لفَّ ثيابه ليتَّخذ منها وسادة، ودسّ الجريدة في داخل الثّياب، ولفَّ نفسَه بالبطّانيّة، ونام على الصُّحُف القديمة الأُخرى الّتي كانت تُغطّي نوابضَ السّرير.

غشّاه النّوم بعد وقت قصير، وراح يحلُم بإفريقيا عندما كان صبيًّا وبالشَّواطئ الذَّهبيّة الطّويلة، وبالشَّواطئ البيضاء، شواطئ بيضاء جدًّا لدرجة أَنَّها تُؤذي عينيكَ، وبالمناظر السّاحليّة العالية، وبالجبال الدّاكنة العظيمة، وصار الآن يعيش على ذلك السّاحل كلّ ليلة، وفي أحلامه كان يسمع هدير الأمواج، ويرى ما تحمله من قواربِ السُّكّان المحلّيّين، وفي

نومه كان يشمّ رائحة القطران والحِبال القديمة من ظهور المراكب، وعند الصّباح كان يشمُّ رائحة إفريقيا الّتي يَجلبها نسيم البرّ.

كان من عادته أَن يستيقظ عندما يستنشق نسيم البرّ، فيرتدي ملابسه، ويذهب لإيقاظ الصَّبيّ، ولكن، هذه اللّيلة، جاءَ نسيمُ البرِّ مُبكِّرًا جدًّا، وأدركَ -وهو في حُلْمه- أنَّ الوقت ما زال باكرًا، فاستمرَّ يحلُم ليرى القِمَم البيضاء في الجُزر وهي ترتفع من البحر، ثمّ حلم بالمرافئ المختلفة ومراسي جُزر (الكناري).

لم يعُد يحلُم بالعواصف، ولا بالأحداث العظيمة، ولا بالأسماك الكبيرة، ولا بالمشاجرات، ولا بمباريات القوّة، ولا بزوجته، صار الآن يحلُم فقط بالأماكن وبالأُسود على الشّاطئ، كانت تلك الأُسود تلعب مثل قططٍ صغيرة في الغسق، فأحبَّها وأحبَّ الصَّبيّ، لكنه لم يحلُم قطّ بالصَّبيّ.

استيقظ الشّيخ ببساطة، ونظر من خلال الباب المفتوح إلى القمر، ونشر ثيابه وارتداها. غسل وجهه خارج الكوخ، ثمّ سار صاعدًا في الطّريق لإيقاظ الصَّبيّ، كان يرتجف من برد الصَّباح، ولكنّه كان يعلم أنّه سيرتجف حتّى يدفِّئه الارتجاف،

وبعد قليل سيقوم بتجديف قاربه.

لم يكن باب الدّار الّذي يسكن فيه الصَّبيّ مُقفلًا، ففتحه، ودخل بقدميْه الحافيتَيْن في هدوء، كان الصَّبيُّ نائمًا في سريرٍ صغير في أوَّل غرفة، وكان بمقدور الشّيخ أن يراه بوضوحٍ على الضَّوء المُتسرِّب من القمر المُحتضِر، أَمسكَ بإحدى قدمَي الصَّبيّ برفق، وظلَّ مُمْسِكًا بها حتّى استيقظ الصَّبيّ، واستدار، ونظر إليه، فأَوْمأَ الشّيخ برأسه، فتناول الصَّبيُّ ثيابه، ولبسها.

خرج الشّيخ من الباب، ولحق به الصَّبيُّ -كان نعسانَ- فوضع الشّيخ ذراعه حول كتفَيْه، وقال:

- «أنا آسف».

قال الصَّبيّ:

- «ماذا جرى؟ هذا ما يجب أَن يفعله الرَّجل».

سارا هابطَيْن في الطَّريق إلى كوخ الشّيخ، وهناك على طول الطَّريق، كان رجالٌ حُفاةٌ يتحرَّكون في الظَّلام، وهم يحملون سواري قواربهم.

وحينما وصلا إلى كوخ الشّيخ، أخذ الصَّبيُّ لفّاتِ الخيط

في السَّلَّة والحربة والخطّاف، وحمل الشّيخ السّارية مع الشِّراع المطويّ على كتفه.

سأله الصبيّ:

- «هل تريد قهوة»؟

- «سنضعُ العُدّة في القارِب ثمّ نتناول شيئًا من القهوة».

احتسيا القهوة من عُلب حليبٍ مركَّز في محلٍّ يفتح في الصَّباح الباكر لخدمة الصَّيّادين.

سأل الصَّبيُّ:

- «كيف نِمتَ، أيُّها الشّيخ»؟

قال الشّيخ:

- «نِمْتُ نومًا عميقًا، يا (مانولين)! أشعر بالثِّقة والنّجاح هذا اليوم».

قال الصَّبيّ:

- «وأنا كذلك، والآن يجب أَن أَجلب حصّتك وحصَّتي من السّردين وطُعْمك الطّازج. مُعلِّمي هو الّذي يجلب عُدّتنا بنفسه، ولا يريد أحدًا غيرَهُ أن يحمل أيَّ شيءٍ أَبدًا».

قال الشّيخ:

- «نحن مختلفان، كنتُ أدعك تحمل بعض الأشياء وعمرك خمس سنوات».

قال الصَّبيّ:

- «أعرف ذلك، سأعود في الحال، تناولْ قهوةً أُخرى، فلدينا حساب جارٍ هنا».

وسار الصَّبيّ حافي القدمَيْن على الصُّخور المرجانيّة إلى بيتِ الثَّلج حيث خُزِّنت قطع الطُّعم.

أسئلةُ الفصلِ الثّاني

1. جاء وصفُ كوخ الشّيخ مُتوافِقًا مع طبيعته الشّاقّة، وضّح ذلك.
2. ما سَببُ إنزالِ الشّيخ الصّورةَ المُلوّنة المُعلّقة على الجدار لزوجته؟
3. ما الّذي مَثّلَتْهُ إفريقيا لـــ(سانتياغو) عندما كان صبيًّا؟ ومتى حدث استرجاعُ هذه الذّكريات؟
4. قال الصّبيُّ:
«تدفَّأْ، أَيُّها الشّيخ، وتذكّر أَنّنا في شهر سبتمبر/أيلول».
قال الشّيخ:
«هذا هو الشّهر الّذي تأتي فيه الأسماك الكبيرة، أيُّ شخص يستطيع أن يُصبِح صيّادًا في شهر مايو/أيار».
ما الّذي تَفهمُ من قول (سانتياغو)؟
5. «ولكنّني أعرف عدّةَ حيَلٍ وعندي العَزيمة»، ما الرّؤية الّتي تحملها هذه العِبارةُ من قول الشّيخ؟ وما الدّافع الّذي حمله على هذه الرّؤية؟

6. علّل سبب قول الشّيخ للصّبيّ: «يعجبني أن آخذ (ديماجيو) العظيم معي للصَّيد».

7. في هذا الفصلِ حوارٌ داخليٌّ (مونولوج)، حَدِّدْهُ، وَحدِّدْ قائِلَهُ، وَبيّن علامَ يدلُّ؟

قال الصّبيُّ: «وأَحسنُ صيّادِ سمك هو أنتَ».

فقال الشّيخ: «لا، أعرف آخرين أفضل منّي».

بِمَ تُفسِّرُ هذا الرَّدَّ مِنْ قِبَلِ (سانتياغو)؟

الفصلُ الثّالثُ

احتسى الشّيخ قهوتَه على مَهل، هذا كلُّ ما سيتناوله طَوال ذلك النَّهار، وهو يعلم أنَّ عليه أن يحتسيها، فمنذ وقت طويل أَصبح الأَكل يضايقه، ولم يحمل معه غذاءً أبدًا، وقد كانت لديه قنينةُ ماءٍ في مُقدِّم المَركب، وهذا كلُّ ما يحتاجه خلال النَّهار.

الآن عاد الصَّبيّ بالسّردين والطُّعمَيْن الملفوفَيْن في جريدة، فهبطا في المَمرِّ إلى المَركب، وهما يُحِسّان بالرّمل المليء بالحصى تحت أقدامهما، ورفعا المركب لينزلق في الماء.

– «حظًّا سعيدًا، أيُّها الشّيخ».

قال الشّيخ:

– «حظًّا سعيدًا».

أَحكمَ الشّيخ رَبطتَي المجدافَيْن وثبّتَهما في وتديهما، وبانحناءةٍ إلى الأمام ضغط على طرفَي المجدافَيْن المنغمسَيْن في الماء، وراح يجدِّف خارجًا من المرفأِ في الظلام، وكانت ثمّة قوارب أُخرى مُنطلِقة من شواطئ أُخرى إلى عُرْض البحر، وأَخذَ الشّيخ يسمع ولوج مجاديفها في الماء ودفْعها له، على

الرّغم من أنّه لم يستطِعْ رؤيتَها بعد أَن غاب القمر خلف التّلال.

أَحيانًا، يتكلَّم شخصٌ ما في قارب، ولكنَّ أغلب القوارب كانت صامتةً، ماعدا صوتَ انغماس المجاديف في الماء، وانتشر الصّيّادون بعد أَن خرجوا من فَم المرفأِ، واتّجه كلُّ واحدٍ منهم إلى ذلك الجزء من المحيط الّذي يأمُل أَن يجِدَ فيه السَّمك، وكان الشّيخ يعلم أنّه سيذهب بعيدًا، فترك أريجَ البرِّ خلفه، وراح يجدِّف بعيدًا في اتِّجاه رائحة المحيط النّقية في الصباح الباكر، ولاح لعينيه الوميضُ الفوسفوريُّ لطحالب الخليج في الماء، فيما كان يجدِّف في ذلك الجزء من المحيط الّذي كان الصَّيّادون يدعونه بالبئر العظيم بسببِ وجودِ انخفاضٍ مُفاجئٍ يبلغ عمقه سبعمائة قامة حيث تتجمّع كلُّ أنواع السّمك؛ بسبب الدوّامة الّتي يُحدِثها المَجرى عند ارتطامه بالجدران المُنحدِرة لقاع المحيط، فهنا يوجد تَمركُزٌ للرّوبيان وأسماك الطُّعْم، وأحيانًا مستوطنات لسمك الحبّار في الأغوار العميقة، وهذا النّوع من السَّمك يعلو مقتربًا من سطح الماء في اللَّيل حيث تتغذّى عليه الأسماك السّائبة جميعها.

وفي الظَّلام، استطاع الشّيخ أن يشعر بقدوم الصَّباح، وبينما

كان يُجدِّف، تناهى إلى سمْعه الصَّوتُ المُرتعش الّذي تُخلِّفه الأسماك الطّائرة وهي تغادر الماء، وهسيس زعانفها الصَّلبة وهي ترتفع في الظُّلمة، كان مولعًا بالسَّمك الطّائر؛ لأنّه رفيقه الرَّئيس في عُرْض المحيط، وكان يشعر بالأسى للطّيور، خاصّةً طيور الخرشنة السّوداء الضّعيفة الصّغيرة الّتي كانت تُحلِّق دائمًا، وتبحث، ولا تجد شيئًا على الإطلاق تقريبًا. وفكّرَ في نفسه: «للطّيور حياةٌ أصعب من حياتنا، ماعدا الطُّيور السَّرّاقة والطُّيور القويّة الضّخمة. لماذا خُلِقَت بعض الطّيور ضعيفةً ورقيقةً جدًّا مثل خطاطيف البحر، في حين يمكن للمحيط أن يكون قاسيًا إلى حدّ كبيرٍ؟ إنَّ المحيط كريمٌ وجميلٌ جدًّا؛ ولكنْ بمقدوره أن يغدو قاسيًا جدًّا، وأن يرتفع ارتفاعًا مفاجئًا، وهذه الطُّيور الّتي تُحلِّق، وتغطس لتصطاد -بأصواتها الحزينة الخافتة- هي أرقّ من أن تُخلَق للبحر».

كان يفكّر دائمًا في البحر بصيغة المؤنّث (la mar)، كما يدعوه النّاسُ باللُّغة الإسبانيّة عندما يحبّونه، وأحيانًا يتفوّه أولئك الّذين يعشقون البحر بأشياءَ سيّئةٍ عنه، ولكنّهم كانوا دائمًا يقولون تلك الأشياء كما لو كان البحر امرأة، وكان بعض الصيّادين الأصغر سِنًّا، أولئك الّذين كانوا يستعملون

الطّوّافات لتعويم خيوطهم، ولديهم قوارب بخاريّة اشتروها عندما كان كبد سمك القرش يدرُّ عليهم المالَ الوفير، يدعون البحر بالمُذكّر (el mar).

كانوا يتحدَّثون عن البحر بوصفه مُنافِسًا، أو مكانًا، أو حتّى عَدوًّا، ولكنَّ الشّيخ كان دائمًا يعدُّ البحر بمثابة امرأة تَمُنُّ أَحيانًا بعطايا عظيمة، أو تبخل بها في أحيان أخرى، وإذا ما فعلَتْ أشياءَ شريرةً أو غريبةً فلأنَّها لم يكُن في وسعها أن تفعل غير ذلك، فالقمر يؤثِّر في البحر كما يؤثِّر في المرأة، هكذا فكّر الشّيخ في نفسه.

كان يجدِّف تجديفًا متواصلًا، ولم يكُن ذلك بمجهودٍ بالنِّسبة إليه، مادام أنَّه بقي في نطاق سرعته، وما دام سطح البحر مستويًا باستثناء بعض دوّامات الّتيار بين آونة وأخرى. كان يدع الّتيار يقوم بِثُلث العمل، وعندما طلعَ ضوء النَّهار، رأى أنَّه أصبح أبعد ممّا كان يأمُل في هذه السّاعة.

وفكَّر: «لقد عملتُ في الآبار العميقة مدّةَ أسبوع، ولم أحصل على شيء، اليوم سأعمل بعيدًا حيث توجد مستوطنات أسماك (البونيتو) و(الباكور)، فربما توجد سمكة كبيرة معها».

وقبْل أَن ينتشر ضوءُ النهار حقًّا، أخرج قطع الطُّعْم، واندفع مع الّتيار، كانت إحدى قِطَع الطُّعم على عُمْق أربعين قامة، والقِطعة الثّانية على عُمْق خمس وسبعين قامة، وكانت القِطعتان الثّالثة والرّابعة في المياه الزّرقاء على عمق مائة وخمس وعشرين قامة، وكانت كلُّ سمكة من سمكات الطُّعم مُعلَّقة، ورأسها إلى الأسفل، وكان رأس الصِّنّارة مَخفيًّا في داخل سمكة الطُّعم، وهو مربوط، ومَخيط بإحكام، والأجزاء الظّاهرة من الصِّنّارة كالقوس والرَّأس مُغطَّاة بأسماك السّردين الطّازجة، وكلُّ سردينة قد رُبِطَت من كلتا عينيها بحيث كوَّنت نصف إكليل على الفولاذ النّاتئ، وليس ثمّة أيُّ جزء من الصِّنّارة تستطيع أَن تستشعره أيَّةُ سمكةٍ كبيرة دون أن تشمَّ الرّائحة الشَّهية والمذاق الطَّيِّب.

كان الصَّبيُّ قد أعطاه سَمكتَي تونة طازجتَيْن أو سمكتَي باكور، وهما اللّتان كانتا مُعلّقتَيْن بالخيطَيْن الأكثر عُمقًا مثل رُمّانتي ثقل، وعلى الخيطَيْن الآخرَيْن علّق سمكةً كبيرةً زرقاءَ من نوع العدّاء، وأُخرى صفراءَ من نوع سمك سليمان، كانتا مُستعمَلتَيْن من قبل، ولكنَّهما مازالتا في حالةٍ جيِّدة، وعليهما السّردين الممتاز؛ ليمنحهما رائحةً وجاذبيّة، وكان كلُّ خيطٍ

مطويًّا على عصا غضّة بِثخنِ قلمِ رصاصٍ كبير، بحيث إذا تعرّض الطُّعم لأيَّة سحبةٍ أو لمسةٍ، فإنَّ العصا تغطس في الماء، ولكلٍّ خيط لفّتان، طولُ كلٍّ واحدةٍ منهما أربعون قامة، ويمكن ربطهما بسرعة باللَّفّات الاحتياطيِّة، بحيث تستطيع السَّمكة، عند الضّرورة أن تسحب أكثر من ثلاثمّائة قامة من الخيط.

الآن، أَخذَ الشّيخ يُراقب انغماسَ العِصيِّ الثلاث بجانب المَركب، وجدَّفَ برفق ليحافظ على استقامة الخيوط صعودًا ونزولًا وفي أعماقها المُناسِبة، كان الضّياءُ كافيًا والشّمس توشك أَن تُشرِق بين لحظةٍ وأخرى.

طلعتِ الشَّمسُ باهتةً من البحر، وأصبح بمقدور الشّيخ أن يرى القوارب الأُخرى منخفضةً في مستوى الماء، بعيدةً عنه، وقريبةً من الشّاطئ، وقد انتثرتْ عبر الّتيار، ثمّ صارتِ الشَّمس أشدَّ لمعانًا، وانعكس وهجها على صفحة الماء، وعندما ارتفعت تمامًا، بعث البحر المنبسط بأشعتها إلى عينيه لدرجة أَنَّها آلَمته بحدّة، فراح يجدِّف دون أن ينظر إليها، راح ينظر إلى الأسفل حيث الماء، ويراقب الخيوط الّتي نفذت بعيدًا في ظُلمة الماء، وقد حافظ عليها مستقيمةً أكثر ممّا يستطيعه

أيُّ صيّادٍ آخر، بحيث كان في كلِّ مستوًى من مستويات المَجرى المُظلِم طُعْم ينتظر تمامًا في المكان الّذي يرغب فيه، جاهزًا لأيّة سمكةٍ تسبح هناك، أما الصَّيّادون الآخرون فإنَّهم يتركون خيوطهم تنجرف مع الّتيار، وكثيرًا ما تكون على عُمْق ستّين قامة فقط، في حين يظنّ الصَّيّادون أَنّها على عُمْق مائة.

وفكَّرَ: «أَمّا أنا فأحتفظ بها احتفاظًا مضبوطًا؛ فقط لأنَّني لم أعُد محظوظًا، ولكن مَن يدري؟ ربَّما اليوم، فكلُّ يوم يومٌ جديد، ومن الأحسن أَن يكون المرءُ محظوظًا، بيد أنّي أفضّل أن أكون مضبوطًا، وبعد ذلك عندما يُقبِل الحظُّ تكون مستعدًا له».

الآن وبعد ساعتَيْن من ارتفاع الشّمس، لم تَعُدْ تؤذي عينَيْه كثيرًا إذا نظر إلى الشَّرق، كانت ثلاثة قوارب فقط في المنظور، وبدتْ منخفضةً جدًّا، وبعيدةٌ عنه قرب الشّاطئ.

وفكَّر: «طوال حياتي كانت الشَّمس المبكِّرة تؤذي عينَيَّ، ومع ذلك فهما ماتزالان جيّدتَيْن، وفي المساء، أستطيع أن أنظر إليها مباشرة دون أن يغشاهما السَّواد، مع أن قوتها أكبر في المساء، ولكنَّها في الصَّباح مؤلِمة».

في تلك اللّحظة بالذّات، رأى طائرَ فرقاطٍ يحوم، بجناحيه الأسودَيْن الطَّويلَيْن، في السَّماء أمامه، وقام طائر الفرقاط بهبوطٍ سريع مائلًا على جناحَيه المُتَّجهَيْن إلى الخلف، ثمّ عاد يحوم مرَّةً أُخرى.

قال الشّيخ بصوتٍ عالٍ:

- «حصلَ على شيءٍ ما، إنَّه لا ينظر فحسب».

جدَّف ببطءٍ وثَباتٍ إلى حيث كان الطَّير يحوم، ولم يستعجل، وحافظ على خيوطه مُمتدَّةً باستقامةٍ من الأعلى إلى الأسفل، ولكنَّه حاذى التّيار قليلًا لكي يظلّ بإمكانه الصَّيد بشكلٍ صحيح، مع أنَّه أسرع ممّا كان يصطاد لو لم يكُن يحاول استخدام الطّائر.

حلَّقَ الطَّيرُ عاليًا في الهواء، وحامَ مرَّةً أُخرى وجناحاه ساكنان، ثمّ أَسَفَّ فجأةَ، وعندها رأى الشّيخ سمكاتٍ طائرةً تنطُّ خارجةً من البحر، وتُبحِر -في يأسٍ- على سطح الماء.

صاح الشّيخ بصوتٍ عالٍ:

- «دلافين، دلافين كبيرة».

رفع المجدافين إلى المركَب، ومن تحت مؤخَّر المركب

تناول صنّارةً صغيرة، في رأسها سلكٌ وخطّافٌ متوسط الحجم، فوضع عليه إحدى سمكات السّردين طُعْمًا، وتركه ينساب من على جانب المركب، ثمّ ربطَه إلى حلقةٍ في مؤخَّر المَركب، ثمّ وضع طُعْمًا على صنّارة ثانية، وتركها مربوطةً في ظلِّ مقدَّمِ المَركب، واستأنف التَّجديف ومراقبة الطَّير الأسود ذي الجناحَيْن الطّويلَيْن الّذي كان مُنهمِكًا في عمله -الآن- قريبًا من سطح الماء.

وفيما كان الشّيخ يراقب الطَّير، اتّجه الطَّير مرَّةً أُخرى، وهو يُميل جناحَيه إلى الأسفل مُطاردًا السَّمكات الطّائرة، ولكنَّه عاد يصفّق جناحيه بشدَّةٍ تصفيقًا غيرَ مُجدٍ، وتمكَّن الشّيخ من رؤية البروز الخفيف على سطح الماء الّذي سبّبته الدَّلافين وهي تلاحق الأسماك الهاربة. كانت الدَّلافين تشقُّ الماءَ مُبحِرةً بسرعةٍ تحت مسار طيران الأسماك، وستكون في انتظارها في الماء عندما تهبط تلك الأسماك. وقال الشّيخ في نفسه: «إنَّه تجمُّعٌ كبيرٌ للدلافين؛ وهي منتشرةٌ في مساحةٍ شاسعة، وليس للأسماك الطائرة سوى فرصةٍ ضئيلةٍ للنجاة، أمّا الطَّير فلا نصيب له؛ لأنَّ الأسماك الطّائِرة أكبر ممّا يستطيع، وهي تتحرَّك بسرعة فائقة».

وراقب الشّيخ الأسماك الطّائرة وهي تنطُّ من الماء مرَّةً تلو الأخرى، وشاهد حركات الطّير غير المُجدية، وقال في نفسه: «إنَّ تجمُّع الدّلافين ذاك قد أَفْلتَ منّي، إنّها تتحرَّك بسرعةٍ كبيرةٍ وبعيدًا جدًّا، ولكنَّني رُبَّما ألتقط واحدةً ضالَّة، وقد تكون سمكتي الكبيرة بالقرب منها، لا بُدَّ أن تكون سمكتي الكبيرة في مكانٍ ما.

أَخذتِ الغيوم ترتفع الآن فوق البَرِّ مثل الجبال، وبدا السّاحل مجرَّد خطٍّ أخضر طويل، وخلفه تلالٌ زرقاء داكنة، وكان لون الماء أزرق قاتمًا، وكانت زرقته قاتمةً جدًّا لدرجة أَنَّها بدت أرجوانيَّة تقريبًا. وبينما كان الشّيخ ينظر إِلى الماء، رأى بقايا الكائنات البحريّة طافيةً على المياه الدّاكنة، والضوءَ الغريب الّذي خلّفته الشّمسُ الآن، وراقبَ خيوطه ليراها تمتدّ باستقامة إلى الأسفل حتّى تغيب في الماء، وشعر بالسُّرور لرؤية هذه الكثرة من بقايا الكائنات البحريّة؛ لأنَّ ذلك يعني وجود الأسماك هناك، وكان الضَّوء الغريب الّذي بعثته الشَّمس في الماء –وهي الآن أكثر علوًّا– يعني طقسًا جيِّدًا، وهذا ما يدلّ عليه كذلك شكلُ الغيوم فوق اليابسة، ولكنَّ الطَّير لم يعُد تقريبًا في مدى البصر الآن، ولم يبدُ فوق سطح

الماء سوى بعض البُقع الصّفراء من أعشاب السّراخس الّتي تغيّرَ لونها بفعل الشّمس، وسمكة جولي سامّة كانت طافيةً بالقرب من القارب وقد انقلبتْ على جانبها ثمّ استعادت وضعها الصَّحيح، كانت تطفو مترنِّحةً مثل فقاعة، وهي تجرُّ أذيالها الأرجوانيّة القاتلة وراءها مسافةَ ياردةٍ على الماء.

قال الشّيخ:

– «ماء سيّء.. أَيَّتها السّمكة السّامّة!».

ومن مكانه، مالَ قليلًا على مجدافَيْه، وألقى نظرةً على الماء، فرأى الأسماك الصَّغيرة، المُلوَّنة ، ولهذه الأسماك الصَّغيرة مناعة ضدّ سمومها، ولكنَّ النّاس ليست لهم تلك المناعة، فعندما يعلّق بعضُ تلك الأذيال بخيطٍ، وتبقى منه هناك مادّة أرجوانيّة لزجة، وتمسُّ الشّيخ وهو يشتغل على سمكةٍ فإنَّه سيُصاب بِقروحٍ وأورامٍ في ذراعَيه ويدَيه كتلك الّتي تُحدِثها شُجيراتُ اللَّبلاب السّامّة، أو شجرة السِّنديان السّامّ، بَيْدَ أنَّ تلك التَّسمُّمات الّتي يسبِّبها الـــ(الماء السّيّء) تأتي بسرعة، وتلسع مثل ضربة سوط.

كانت الفقاقيع القزحيّة اللَّون جميلة، ولكنَّها أكثر الأشياء زيفًا في البحر؛ فكان الشّيخ يحبُّ أن يرى السَّلاحف البحريّة

الكبيرة وهي تلتهمها، كانت السّلاحف -إذا ما رأت تلك الفقاقيع- اقتربتْ منها من الأمام، وأغمضت عيونها لتكون محميّةً تمامًا، وأكلتها متتابعة جميعها، وكان الشّيخ يحبّ أن يرى السَّلاحف وهي تأكلها، كما كان يحبّ أن يمشي عليها في الشّاطئ بعد عاصفةٍ ما، ويسمعها تتفرقع حينما يدوس عليها بباطن قدمه المتصلِّب مثل قرن.

أَحبَّ الشّيخ السَّلاحفَ الخضراء والسَّلاحفَ الصّقريّة الأنوف، برشاقتها وسرعتها وقيمتها العظيمة، وكان لديه احتقارٌ ودّي للسَّلاحف الغبيّة الضَّخمة ذات الدّروع الصَّفراء، الغريبة في طريقة تكاثرِها، والسَّعيدة بالتهام مخلّفات الكائنات السّامّة وعيونها مُغمضة.

لم يكُن لديه شعورٌ خاصٌّ تجاه السَّلاحف، على الرّغم من أنَّه أَمضى سنوات عديدة في العمل على قوارب صيد السَّلاحف، كان يشعر بالأسف لها جميعًا، حتّى تلك السَّلاحف ذات الظُّهور الضَّخمة الشَّبيهة بالصَّناديق والّتي يبلغ طولها طول المَركب وتَزِن طنًّا، فمعظم النّاس لهم قلبٌ متحجِّر لا يرحم السَّلاحف؛ لأنَّ قلب السّلحفاة يظلُّ ينبض ساعاتٍ بعد أن تُقطَّع أوصالها، وتُجزَر. ولكنَّ الشّيخ فكّرَ

قائلًا في نفسه: «وأنا لديّ مثل هذا القلب كذلك، ويداي وقدماي مثل أيدي السّلاحف وأقدامها». وكان الشّيخ يأكل بيضها الأبيض ليكتسب قوّةً. كان يأكل بيضها طَوال شهر مايو/أيار؛ ليكون قويًّا في سبتمبر/أيلول، وأكتوبر/تشرين الأوّل، من أجل اصطياد السّمكة الكبيرة حقًّا.

وكان يشرب، كذلك، كوبًا من زيتِ كبدِ سمكِ القرش كلّ يوم من البرميل في الكوخ الّذي يحفظ فيه العديد من الصَّيّادين عدّتهم. وكان زيت الكبد هناك لكلّ من يُريده من الصَّيّادين، بَيدَ أنَّ معظم الصَّيّادين كانوا يكرهون مذاقه، ولكنَّه لم يكُن أسوأ من النُّهوض في السّاعات الّتي كانوا يستيقظون فيها، وكان ذا فائدةٍ كبيرةٍ لمقاومةِ أنواع الزكام والإنفلونزا جميعها، كما كان مفيدًا للعينَيْن.

الآن، نظر الشّيخ إلى الأعلى ورأى الطَّير يحوم مرَّةً أُخرى، قال بصوت مرتفع:

«لقد وجدَ سمكة».

لم تخترق أيَّةُ سمكةٍ طائرة سطح الماء، ولم تنتشر هناك سُميكات الطُّعْم، ولكن، بينما كان الشّيخ يراقب الماء، نطّتْ

سمكةُ تونة صغيرة في الهواء، استدارتْ ثمّ غطستْ برأسها أوّلًا في الماء. لمعتْ سمكةُ التونة بلونها الفضّيّ في الشّمس، وبعد أن غاصتْ في الماء، وثبَتْ سمكةُ تونة أُخرى، وأخرى، وراحَتِ السّمكات تتقافز في الاتّجاهات جميعها، مُحدِثةً رغوةً في الماء، وهي تنطُّ في قفزاتٍ عاليةٍ وراء سُميكات الطُّعْم، فكانت تطوِّقه، وتطاردها.

وفكّرَ الشّيخ: «إذا لم تُبحِر بعيدًا، فإنّني سألحق بها، وراح يراقب مجموعة الأسماك وهي تحيل لون الماء أبيض، وأخذ الطّير الآن في الهبوط والغطس وراء سُميكات الطُّعْم الّتي اضطرتْ إلى التّوجُّه إلى سطح الماء مذعورةً».

قال الشّيخ:

- «إنّ الطّير عونٌ عظيم».

في تلك اللّحظة بالذّات، أخذ خيط الصِّنّارة الّتي في مؤخّر المَركب بالتّوتُّر تحت قدمه، حيث كان يحتفظ ببكرة الخيط؛ فألقى بمجدافَيْه جانبًا، وأَحسَّ بضغط ارتعاش سمكة التّونة الصّغيرة وهي تسحب الخيط الّذي كان مُمسكًا به بشدّة، فراح يجذبه إليه. ازداد الارتعاش كلّما جذب الخيط إليه، وصار بإمكانه أن يرى ظَهر السّمكة الأزرق في الماء ولون جنبيها

الذَّهبيّ قبل أن يرفعها من فوق جانب القارب، ويرميها في داخله. ارتمتِ السَّمكة في مؤخَّر القارب في الشَّمس بشكلها الكرويّ المُكتنِز، وهي تحدّق بعينيها البلهاوين الكبيرتَين فيما كانت تخبط حياتها على خشب القارب بضربات مرتعشة خاطفة من ذيلها الأملس السَّريع الحركة، وبدافع الشَّفقة، ضربها الشّيخ على رأسها، ورفسها، وكان جسدها ما يزال يرتجف في الظِّلِّ بمؤخَّر القارب.

قال الشّيخ بصوتٍ مرتفع:

- «إنّها سمكة الباكور، وتصلح لتكون طُعْمًا رائعًا، إنّها تَزِن عشرة أرطال».

لم يتذكَّر متى بدأ -أَوَّلَ مرَّة- بالتحدُّث بصوتٍ مسموع، عندما يكون وحده، كان في الأيّام السّالفة يُغنّي في وحدته، وكان أحيانًا يُغنّي في اللَّيل عندما يكون منفردًا في أثناء نوبته في سفن الصّيد أو في قوارب صيد السَّلاحف، ربَّما شرع في التحدُّث بصوت عالٍ وهو وحيد بعد أن غادر الصَّبيُّ، ولكنَّه لم يتذكَّر. عندما كان هو والصَّبيّ يمارسان الصَّيد معًا، كانا -عادةً- يتكلّمان عند الضَّرورة فقط؛ كانا يتكلَّمان في اللَّيل، أو عندما تُعطِّلهما عاصفةٌ في طقسٍ سيّء، كان عدم التّكلُّم

غير الضَّروريّ في البحر يُعَدُّ فضيلة، وقد اعتبره الشّيخ دائمًا فضيلة، واحترمها، ولكنَّه الآن يقول أفكاره بصوتٍ عالٍ عدّة مرّات، مادام لا يوجد أحدٌ يمكن أن يزعجه ذلك.

قال بصوتٍ مرتفع:

- «لو سمعني الآخرون أَتكلَّم بصوتٍ عالٍ لظنّوني معتوهًا، ولكن مادمتُ لستُ معتوهًا فلا يهمّني ذلك... الأغنياء عندهم المذياع يتحدَّث إليهم في قواربهم، ويأتيهم بأخبارِ لعبةِ (البيسبول)».

وقال في نفسه: «ليس الآن وقتُ التَّفكيرِ بلعبة (البيسبول)، الآن وقتُ التّفكيرِ في شيءٍ واحد فقط، وهو ما وُلِدتُ أنا لأجله، فربَّما توجد سمكةٌ كبيرةٌ بالقرب من مجموعة أسماك التّونة، فقد التقطتُ واحدة تائهة فقط من أسماك البكور الّتي كانت تتغذّى، ولكنَّ تلك الأسماك كانت تعمل بعيدًا جدًّا، وتتحرَّك بسرعة، فكلُّ شيءٍ يبدو اليوم على سطح الماء، ينتقل بسرعةٍ كبيرة، وفي اتّجاه الشَّمال الشَّرقيّ، أيمكن أن تكون لذلك علاقةٌ بمثل هذا الوقت من النَّهار؟ أم أنّه علامةٌ لطقسٍ لا أعرفه؟».

لم يَعُد بإمكانه رؤية خضرة السّاحل الآن، وإنّما فقط قمم

التِّلال الزّرقاء الّتي بدت بيضاء كما لو كانت مُكلَّلة بالثَّلج، وتراءت فوقها السُّحب مثل جبالِ ثلجٍ عالية. كان البحر قاتمًا جدًّا والضوء ينتشر فيه بأشكالٍ مخروطيّة، أَمّا النّقط اللّامعة اللّامعدودة من بقايا الكائنات البحريّة الطّافية على السَّطح فقد ألغتها الآن أشعّةُ الشّمس المرتفعة، ولم تَبقَ سوى الأشكال المخروطيّة العظيمة في المياه الزَّرقاء الّتي كان الشّيخ يراها الآن مع خيوط صنّاراته المُمتدَّة باستقامةٍ إلى الأسفل في الماء الّذي يبلغ عمقه الميل.

أسئلةُ الفصلِ الثّالثِ

1. يضعُ الرّاوي القارِئَ في هذا الفَصلِ أمام مهارَةِ الشّيخ وخبرته وتفوّقه على أقرانه من الصّيّادين. استخرِجْ من النّصِّ ما يدلُّ على ذلك.
2. للشّيخِ رأيٌ في مَسألةِ الحظِّ، وضِّحْهُ، ثُمَّ بيّن موقِفَكَ منه.
3. ما الدَّوْرُ الّذي أدّاهُ الطّائِرُ الأَسْوَدُ في هذا الفصلِ؟ وكيفَ كان وجوده مُساعِدًا إلى (سانتياغو)؟
4. تجلَّتْ إنسانيّةُ (سانتياغو) في تعاطفه مع كائناتها. استخرِجْ من النّصِّ ما يُشيرُ إلى ذلك.
5. هل تَرى أنّ هذا الأمر يزيد من ارتباط القارئ بالشّخصيّةِ؟ وضّح ذلك.
6. شَبَّهَ (سانتياغو) نفسَهُ بالسّلاحفِ، فما وَجْهُ الشّبَهِ بينَهُما؟ وَإِلامَ يُشيرُ ذلك؟

7. وصفَ (سانتياغو) سمكةَ التّونة الّتي اصطادها وَصفًا رائعًا. اقرأ الفقرةَ الدّالّةَ على ذلك، وحاول مع زميلك رصدَ الكلمات والجُمل الّتي جعلت هذا النّصّ نَصًّا وَصفيًّا لا يُضاهى.

8. عَلِّل سببَ شُرْبِ الشّيخ كوبًا من زيت كَبدِ سمك القرش كلّ يومٍ.

9. كان الشّيخُ مولعًا بالسّمكِ الطّائر، فما سببُ وَلَعِهِ بهِ؟

الفصلُ الرّابعُ

مرّةً أُخرى، غاصتْ أسماك التّونة، والتّونة هو الاسم الّذي يطلقه الصَّيّادون على الأسماك جميعها من ذلك النّوع، ويُميِّزون كلَّ سمكة من تلك الأسماك باسمها الخاصِّ عندما يأتون لبيعها أو مُقايضتها بسمك الطُّعْم. وغدت الشَّمس حارَّةً الآن، وشعر الشّيخ بحرارتها في قفاه، وأحسّ بالعرق يتصبَّب على ظهره وهو يجدِّف، وقال في نفسه: «أستطيع أن أدع القارب ينساب مع الّتيار، وأنام واضعًا طرفًا من الخيط حول إبهام قدمي ليوقظني، ولكنَّ اليوم هو اليوم الخامس والثمّانون، وينبغي أن أمارس الصَّيد ممارسةً جيِّدة هذا النهار».

في تلك اللَّحظة بالذّات، لاحظَ -وهو يُراقب خيوطه- أن إحدى العصيّ الخضراء النّاتئة تغطس بحدَّة.

قال:

- «نعم، نعم».

ورفع مجدافَيه دون أن يرتطما بالقارب، ومدَّ يده إلى الخيط، وأمسكَ به في رفقٍ بين إبهام يده اليمنى وسَبّابتها، لم يحسّ بتوتُّرٍ ولا بثقلٍ فظلَّ مُمسكًا بالخيط بخفَّة، ثمّ جاءت

مرَّةً أُخرى، وهذه المرَّة كانت جذبة متردِّدة، ليست شديدة ولا ثقيلة، وأدرك ما كانت تعني بالضّبط، هناك في العمق؛ على بُعد مائة قامة سمكةُ مارلين تأكل السَّردين الّذي يُغطّي طرف الصِّنارة، وساقها حيث يبرز الشِّصُّ من رأس سمكة التّونة الصَّغيرة.

أمسكَ الشّيخ الخيط بلطف، وحلَّه من العصا بيده اليسرى بلطفٍ، الآن يمكنه أن يدعه ينفلت من بين أصابعه دون أن تشعر السَّمكة بأيِّ شدّ.

وفكّرَ: «في هذا الشَّهر، وعلى هذا البُعد، لا بُدّ أن تكون هذه السَّمكة ضخمة. كُلي قطع الطُّعم -أيَّتها السّمكة- كُليها، أرجوك أن تأكليها، ما أطيبَها، وأنتِ هناك على عمق ستمائة قدم في الماء البارد وفي العتمة، دوري دورةً أخرى في الظلام، وعودي لتأكلي الطُّعْم.

وشعر بالجذب الرَّقيق الخفيف، ثُمّ بجذبةٍ أشدّ عندما صعب خلع رأس السَّردينة من الشِّصّ -كما يبدو- ثُمّ لا شيء.

قال الشّيخ بصوت مرتفع:

- «هيّا، قومي باستدارةٍ ثانية، فقط شمّيها، أليست شهيّة؟

كُليها جيِّدًا الآن، ثمّ هناك سمكة التّونة، إنّها صلبةٌ وباردةٌ ولذيذةٌ، لا تخجلي -أيَّتها السَّمكة- كُليها».

انتظرَ والخيط بين إبهامه وسبّابته، وهو يُراقبه، ويُراقب الخيوط الأخرى في الوقت نفسه، فقد تكون السَّمكة قد سبحت إلى الأعلى أو إلى الأسفل، ثمّ جاءت الجذبةُ الرّقيقة ذاتُها مرَّةً أخرى.

قال الشّيخ بصوتٍ عالٍ:

- «ستبتلعه، ساعدها يا إلهي كي تلتهمه».

ومع ذلك فإنَّ السَّمكة لم تبتلع الشِّصّ، فقد انصرفتْ، ولم يُحسَّ الشّيخ بشيءٍ.

قال:

- «لا يمكن أن تكون قد ذهبَتْ، الله يعلم أَنَّها لا يمكنها الانصراف، إنَّها تقوم بدورة، لعلّها عَلِقتْ بشِصّ من قبل، وتتذكَّر شيئًا من ذلك».

ثمّ أحسّ باللَّمسة اللَّطيفة على الخيط، وشعرَ بالسَّعادة، وقال:

- «لقد قامتْ بدورتها فقط، وستأكله».

كان سعيدًا عندما أَحسَّ بالجذب اللَّطيف، ثمّ شعر بشيءٍ شديدٍ وثقيلٍ بصورةٍ لا تُصدَّق؛ إنَّه ثقل السَّمكة، فتركَ الخيط ينفلت إلى الأسفل، وإلى الأسفل، وإلى الأسفل، فاتحًا بذلك أوّلَ اللَّفَّتَيْن الاحتياطيَّتَيْن، وبينما كان الخيط ينساب إلى الأسفل بخفّة من بين أصابع الشّيخ، كان لايزال بإمكانه أن يُحسّ بالثِّقل العظيم، فقد كان ضغط إبهامه وسبّابته عديم الأثر تقريبًا.

قال الشّيخ:

– «يا لها من سمكة! لقد أخذتِ الآن الشِّصَّ في فمها بالعَرْض، وابتعدت به».

وفكّرَ: «إنَّ السَّمكة ستدور ثمّ تبتلعه»، لم يقُل ذلك؛ لأنَّه كان يعلم أنّكَ إذا نطقتَ بشيءٍ حَسَنٍ، فإنّه قد لا يحصل، لقد أدرك مدى ضخامة تلك السَّمكة، وتخيّلها وقد ابتعدتْ في الظلام، والشِّصّ المُغطّى بسمكة التّونة عالقًا بالعَرْض في فمها، في تلك اللَّحظة، أَحسَّ بالسَّمكة قد توقّفت، ولكن الثِّقل مازال موجودًا، ثمّ ازداد الثِّقل، فأرخى مزيدًا من الخيط، شدّد من ضغط إبهامه وسبّابته لحظة، فازداد الثِّقل، واتَّجه عموديًّا إلى الأسفل.

قال:

- «لقد ابتلعَتْه، والآن سأدعها تأكله جيِّدًا».

وترك الخيط ينساب من بين أصابعه، فيما مدّ يده اليسرى ليربط نهاية اللّفَّتَين الاحتياطيّتَين إلى طرف خيطٍ آخر في اللّفَّتَين الأُخريَين، وهكذا غدا الآن مُستعدًّا، فقد صار لديه خيطٌ احتياطيٌّ لثلاث لفّات، طول كلٍّ واحدة منها أربعون قامةً، بالإضافة إلى اللَّفّة الّتي كان يستعملها.

قال:

- «كُلي أكثر قليلًا، كُليه جيِّدًا».

وقال في نفسه: كُليه لكي ينفذ رأس الشِّصّ إلى قلبك، ويقتلك، اصعدي بسهولة، ودعيني أَغرز الحربة فيك -حسنًا- هل أنتِ مستعدّة؟ هل بقيتِ بما فيه الكفاية على مائدة الطَّعام؟

قال بصوتٍ مرتفع:

- «الآن!»، وجذبَ بشدّةٍ بكلتا يدَيه، فسحبَ ياردةً من الخيط، ثمّ جذب الخيط مرَّةً ثانية، وثالثة بكلتا ذراعَيْه بالتَّناوب، وبكلِّ قوَّةِ ذراعيه وهو يدور بثقل جسده.

لم يحدث شيء، كلُّ ما هنالك أنَّ السَّمكة ابتعدتْ ببطءٍ،

ولم يستطِع الشّيخ أن يرفعها بوصةً واحدة، كان خيطه متينًا ومصنوعًا للسَّمك الثَّقيل؛ وقد شدّه إلى ظهره حتّى صار متوتِّرًا، بحيث راحتْ حُبَيبات الماء تتقافز منه، ثمّ راح الخيط يُحدِث هسيسًا بطيئًا في الماء، وهو مازال مُمسِكًا به مُستندًا بنفسه إلى مقعد المَركب وَمُميلًا ظهرَه إلى الخلف لمقاومة الجذب، وأخذ القارب في التّحرُّك ببطءٍ مبتعدًا في اتّجاه الشّمال الشَّرقيّ.

تحرَّكتِ السَّمكة باطِّراد، فأبحروا على مهلٍ فوق سطح الماء الهادئ، وكان الطُعْمان الآخران مازالا في الماء، ولكن ليس ثمّةَ ما يمكن فعله.

قال الشّيخ بصوتٍ مرتفع:

– «أَتمنّى لو كان الصَّبيُّ معي، فالسَّمكة تَجرُّني، وأنا الوتد، كان بإمكاني أن أشدّ الخيط أكثر، ولكنَّ السَّمكة قد تقطعه، يجب أن أُمسِك بها ما استطعتُ، وأعطيها من الخيط عندما تحتاج إليه، أحمد الله على أنَّها تسافر قُدمًا، ولا تغوص إلى الأسفل».

ما الّذي سأفعله لو أنَّها قرَّرتْ أن تغوص إلى الأسفل؟ لا أعرف، وماذا سأفعل إذا أطلقَتْ صوتًا، وماتت؟ لا أدري،

ولكنَّني سأفعل شيئًا ما، ثمّة كثيرٌ من الأشياء الّتي أستطيع فعلها.

شدَّ الخيط إلى ظهره، وراقب ميلانه في الماء، وراح المَركب يتحرَّك بثباتٍ إلى جهة الشّمال الشّرقيّ.

فكّر الشّيخ: «هذا سيقتلها، لا يمكنها أن تفعل هذا إلى الأبد»، ولكن بعد أربع ساعات، كانت السَّمكة مازالت تواصل سباحتها في اطِّراد نحو عُرض البحر، وهي تقطر المَركب، والشّيخ مايزال يشدّ الخيط حول ظهره بقوّة.

قال:

- «كان الوقت ظُهرًا عندما علقتُها، ولم أَرَها إلى الآن».

كان قد دفع بقُبَّعته المصنوعة من الخوص بشدّةٍ في رأسه قبل أن تعلق تلك السَّمكة، والآن أخذت قُبَّعته تحزُّ جبهته، كان ظمآنَ كذلك، فركع على ركبتَيْه بحذرٍ لئلّا يضغط على الخيط، وزحف إلى أقصى ما يمكنه نحو مُقدَّم المَركب، ومدَّ يدًا واحدة إلى قنّينة الماء، وفتحها، وشرب قليلًا، ثمّ استند إلى مُقدَّم المركب، واستراح بالجلوس على السّارية غير المرفوعة والشِّراع، وحاول ألّا يفكِّر، بل يحتمل فقط.

ثمّ نظرَ خلفه، فوجد أنَّ البَرَّ لم يَعُدْ على مدى البصر، وفكّرَ: «لا أَهميّة لذلك، أستطيع دائمًا العودة مُسترشِدًا بوهج الأضواء من (هافانا)، بقيَتْ ساعتان لغروب الشَّمس، وقد ترتفع السَّمكة قبل ذلك، وإذا لم تفعل فقد تظهر عند بزوغ القمر، وإذا لم تفعل ذلك فقد تطلع عند شروق الشَّمس، ليست عندي أَيَّة تشنُّجات، وأشعر بالقوَّة، إنَّها هي الّتي عندها الشّصّ في فمها. ولكنْ، يا لها من سمكة، بحيث تستطيع أن تواصل الجرّ بهذا الشَّكل، لا بُدَّ أنَّ فمها مُطبِق بإحكام على السِّلك، كم أَتمنّى أن أراها، أَتمنّى لو أستطيع أن أراها مرَّةً واحدة فقط؛ لأعرف أيَّ غريم يجابهني»؟

لم تُغيِّر السَّمكة خطَّ سيرها، ولا اتّجاهها أَبدًا طوال تلك اللّيلة، حسب ما يستطيع الشّيخ أن يحكم به من ملاحظة النُّجوم، أَمسى الطَّقس باردًا بعد أن غابت الشَّمس، وجفَّ عَرق الشّيخ باردًا على ظهره وذراعَيْه وساقَيْه الهرمتَيْن، وكان -خلال النهار- قد أخذ الكيس الّذي يغطّي صندوق الطُّعْم، ونشره في الشَّمس لينشف، وبعد أن غربَتِ الشَّمس، أَخذَ ذلك الكيس، وربطه حول عنقه بحيث يتدلّى على ظهره، وزحزحه بحذر إلى الأسفل ليكون تحت الخيط الّذي صار

على كتفيه الآن، حتّى أصبح الكيسُ وسادةً للخيط، ووجد الشّيخ طريقةً للاتّكاء على مُقدَّم المَركب، بحيث صار في وضعٍ مُريحٍ تقريبًا، كان وضعه -في حقيقة الأمر- مجرَّد وضعٍ يقلّ نوعًا ما عن الوضع الّذي لا يُحتمَل، ولكنَّه اعتبره بمثابة وضعٍ مريحٍ تقريبًا.

وفكّرَ الشّيخ: «لا أستطيع أن أفعل شيئًا لهذه السَّمكة، ولا هي تستطيع أن تفعل شيئًا لي، ما دامتْ تواصل مَسلكها ذاك».

وذات مرَّةٍ، نهض، ومن فوق جانب المَركب تطلَّع إلى النُّجوم، ودقَّق في خطِّ السَّير، وبدا له الخيط مثل شريطٍ فوسفوريٍّ يمتدُّ من كتفَيه إلى الماء، أخذوا يتحرَّكون تحرّكًا أبطأَ الآن، وصار وَهَجُ أضواء (هافانا) أقلَّ لمعانًا، بحيث أَدركَ أَنَّه لا بُدَّ أنَّ الّتيار يحملهم نحو الشَّرق، وفكَّرَ: «إنَّني أَفقد لمعان (هافانا)، ولا بُدَّ أَنَّنا نتَّجه أكثر نحو الشَّرق؛ لأنَّه إذا كان خَطُّ سير السَّمكة مستقيمًا، فهذا يعني أَنَّني أتمكَّن من رؤية لمعان (هافانا) عدّة ساعات». وتساءَل في نفسه: يا تُرى، كيف كانت نتيجة مباراة (البيسبول) في نهائي البطولة اليوم؟ لو كنتُ أفعل هذا وأنا أُتابع المباريات بالمذياع، لكان

ذلك شيئًا رائعًا. ثمّ ذكَّرَ نفسه قائلًا: فَكِّرْ في عملكَ دائمًا، فكِّرْ بما تفعل دائمًا، يجب ألّا تقترف فعلًا شائنًا.

ثمّ قال بصوتٍ مسموع:

– –«أَتمنّى لو كان الصَّبيُّ معي، ليساعدني وليشاهد هذا بعينه».

وفكَّرَ: «لا أَحدَ ينبغي أن يكون بمفرده في شيخوخته، ولكن لا بُدَّ ممّا ليس منه بُدّ، يجب أن أتذكَّر أَنَّ عَليّ أن آكل التّونة قبل أن تفسد؛ لأبقى قويًّا. وقال لنفسه: تذكَّرْ مهما كانت شهيّتك قليلة، فإنّه يجب أن تأكل التّونة في الصَّباح، تذكَّرْ.

وخلال اللَّيل، اقترب اثنان من الدَّلافين من القارب، وكان بوسعه أن يسمعهما وهما يتقلَّبان وينفخان، وكان بمقدوره أن يميِّز بين صوت الذّكر وصوت الأُنثى.

وقال:

– «إنّهما لطيفان؛ فهما يلعبان، ويمرحان، إنَّهما إخوة لنا، مثل الأسماك الطّائرة».

ثمّ أخذ يشعر بالشَّفقة على السَّمكة العظيمة الّتي جعلها

تعلق بصنّارته، وقال في نفسه: إنَّها سمكةٌ عجيبةٌ غريبة، ومَن يدري ما عمرها؟ لم يحدث أبدًا أَنَّني اصطدتُ سمكةً بهذه القوّة، ولا سمكةً تصرَّفتْ بهذه الطَّريقة الغريبة، ولعلَّها أَعْقل من أن تقفز، إنّها تستطيع تدميري بالقفز أو الاندفاع الأهوج، ولكن، لعلَّها قد علقتْ بالشّصِّ عدَّة مرّات من قبل، وهي تعرف كيف ينبغي لها أن تخوض معركتها، ليس بمقدورها أَن تعرف أَنَّها تجابه رجلًا واحدًا فقط، وأَنَّه رجل طاعن في السِّنّ، ولكن، ما أَعظمَها من سمكة، وماذا ستدرُّ عليّ في السّوق إذا كان لحمها جيِّدًا، إنَّها تناولت الطُّعْم مثل ذَكَرٍ شجاع ذكيٍّ، وهي تجرُّه مثل ذَكَر، وليس من ذُعرٍ في معركتها، أتساءل ما إذا كانت لهذه السَّمكة خطَّة تتّبعها أم أنَّها مجرَّد يائسة مثلي؟

وتذكَّرَ تلك المرّة الّتي أصاب بصنّارته سمكةً من زوج من أسماكِ المَرلين، وكان الذَّكر يدع الأنثى تأكل أوَّلًا دائمًا. وخاضت السَّمكة الأنثى الّتي علقت بالصنّارة، معركةً يائسةً مذعورةً عنيفةً، سرعان ما أنهكتها، وطَوال الوقت، بقي الذَّكرُ إلى جانبها، يعبر الخيط، ويدور معها عند سطح الماء، بقي قريبًا لدرجة أنَّ الشّيخ خشي أنَّه سيقطع الخيط

بذيله الّذي كان حادًا مثل منجلٍ تقريبًا من حيث الشّكل والحجم. وعندما طعنها الشّيخ بالخطّاف، وضربها بالهراوة، وهو مُمسِك بأنفها السّيف ذي الحافّة الحادّة كورق الزّجاج، وراح يضربها بالهراوة على قمّة رأسها حتّى استحال لونها إلى لون يشبه ظَهر المرايا تقريبًا، ثمّ -وبمساعدة الصَّبيّ- رفعها إلى القارب، ظلّ الذَّكر بجانب القارب، وبعد ذلك، وفيما كان الشّيخ يجمع الخيوط، ويجهّز الحربة، قفز الذّكر عاليًا في الهواء بجانب القارب؛ ليرى أين صارت السَّمكة الأنثى، ثمّ غاص عميقًا في الماء، وكان جناحاه الأرجوانيّان -أي زعنفتاه الصَّدريَّتان- مُنبسطَيْن باتِّساع، بحيث بانت خطوطه الأرجوانيّة العريضة، وتذكَّرَ الشّيخ أنَّه كان جميلًا، وبقي في الماء.

وقال الشّيخ في نفسه: ذلك أَحْزن أَمرٍ وقعَ لي مع الأسماك، وكان الصَّبيُّ حزينًا كذلك، والتمسنا من السَّمكة الأنثى أن تعفو عنّا، وجزرناها في الحال.

- «أَتمنّى لو كان الصَّبي هنا». قال ذلك بصوتٍ عالٍ، واستقرَّ على الألواح الخشبيّة المُستديرة في مُقدَّم القارب، ومن خلال الخيط الّذي كان يلفُّه على كتفَيه،

أحسَّ بقوّة السَّمكة العظيمة وهي تتحرَّك بثبات في الاتّجاه الّذي اختارته.

وفكّرَ الشّيخ: «كان من الضَّروري لها -ذات مرَّة- أن تختار في مقابل أحابيلي».

كانت قد اختارت أن تبقى في المياه العميقة بعيدة عن المصايد والكمائن والأحابيل جميعها، أمّا اختياري فكان أن أذهب إلى هناك لأعثر عليها، بعيدًا عن الناس جميعهم في العالَم، والآن نحن مرتبطان معًا، ونحن على هذه الشّاكلة منذ الظُّهر، ولا أحد يساعد أَيًّا مِنّا.

وفكّرَ: «رُبّما ما كان ينبغي أن أَكون صيّادًا، ولكنَّ ذلك هو الشَّيء الّذي وُلِدتُ من أجله، يجب أن أتذكَّر بكلِّ تأكيد أَن آكلَ التّونة بعد أن يطلع النّهار».

وقبل أن يطلع ضوء النّهار بقليل، أخذ شيءٌ ما أحدَ الطُّعمين اللَّذين كانا خلفه، وسمع العصا تتكسّر، والخيط يأخذ في الانفلات من فوق حافّة المركب، فاستلّ سكّينه من غِمْدها في الظَّلام، وحوّل الثِّقل الّذي تُسبِّبه السَّمكة إلى كتفه اليُسرى، ومال إلى الخلف، وقَطعَ الخيط على خشب حافّة

المَركب، ثمّ قطعَ الخيط الآخر الأقرب إليه، وفي الظَّلام، ربط نهايتَي اللفّتَيْن الاحتياطيّتَيْن. لقد عملَ بمهارة بيدٍ واحدةٍ واضعًا قدمه على اللفَّتَين ليثبّتهما، بينما كان يعقد الخيطَيْن بإحكام، والآن صارت لديه ستّ لفّاتٍ احتياطيّة من الخيط، كانت هناك لفّتان من كلِّ طُعْمٍ قطعَ خيطه، إضافةً إلى لفَّتَي الطُّعْم الّذي أكلته السَّمكة الكبيرة، وخيوطُ كلِّ هذه اللَّفّات متّصلة.

وفكّرَ: «بعد أن يعمّ ضوء النَّهار، سأعود إلى الطُّعم الّذي على عمق أربعين قامة، وأقطع خيطه كذلك، وأربطه باللّفّات الاحتياطيّة، وهكذا سأكون قد فقدتُ مائتي قامة من الحبال الجيّدة إضافة إلى الصّنّارات ورؤوسها، وذلك يمكن تعويضه، ولكن مَن يعوِّض هذه السّمكة إذا علق شصٌّ منّي بسمكة أخرى، وقطعتها عنّي؟ لا أدري ما نوع السَّمكة الّتي أكلت الطُّعم قبل قليل، يمكن أن تكون من نوع المارلين، أو سمكة عريضة الأنف، أو من أسماك القرش، لم أشعر بها أبدًا، وكان عليّ أن أتخلَّص منها بأسرع ما يمكن».

وقال بصوتٍ عالٍ:

– «أَتمنّى لو كان لديَّ الصَّبيّ».

وفكّرَ: «ولكنَّك ليس لديك الصَّبيّ، لديك نفسكَ فقط، ومن الأفضل الآن أن تعود إلى آخر خيط لديك، في الظَّلام، أو ليس في الظَّلام، وتقطعه، وتوصل اللَّفَّتَيْن الاحتياطيَتَيْن».

وهكذا فعل... وكان ذلك عملًا صعبًا في الظَّلام، وقامت السَّمكة مرّةً واحدة بحركة مفاجئة جرّته إلى الأسفل، وأوقعته على وجهه، وتسبَّبتْ بجرح تحت عينه، وسال الدَّم على خدِّه قليلًا، ولكنَّه تخثَّر، وجفَّ قبل أن يصل إلى حنكه، واتَّخذ طريقه عائدا إلى مُقدَّم القارب، واتكأ على الخشب، وعدَّلَ الكيس، وغيَّرَ موضع الخيط بعناية، بحيث يمرُّ عبر جزءٍ جديد من كتفَيْه، وحينما ثبَّتَ الخيط على منكبيه، أخذ يشعر بجرِّ السَّمكة، ثمّ تحسَّس بيده سرعةَ حركة المَركب في الماء.

وفكّرَ: «أتساءل، لماذا قامت السَّمكة بتلك الحركة المفاجئة، لابُدَّ أنَّ السِّلك قد انزلق على انحناءة ظهرها العظيمة، ومن المؤكَّد أنَّ ظهرها لا يؤلمها كما يؤلمني ظهري، ولكنَّها لا تستطيع جَرَّ هذا المَركب إلى الأبد، مهما كانت ضخمة. الآن تخلَّصتُ من كلِّ شيءٍ قد يُسبِّب المتاعب، ولديَّ احتياطيٌّ كبير من الخيط، وهو كلُّ ما يستطيع أن يتمنّاه المرء».

وبرقّةٍ قال بصوتٍ عالٍ:

- «أيَّتُها السَّمكة، سأبقى معكِ حتّى الموت».

وأضاف قائلًا في نفسه: «وأفترضُ أَنَّها ستبقى معي كذلك».

وراح ينتظر مطلع النّهار، صار الجوُّ باردًا الآن قبيل ضوء النَّهار، فاتكأَ على خشب القارب طلبًا للدِّفء، وفكّرَ: إنَّني أستطيع الاستمرار مادامت السَّمكة تستطيع ذلك، وعند انبلاج النّور، انسحبَ الخيط متّجهًا إلى الأسفل في الماء، وتحرَّكَ القارب بثبات، وعندما طلع أوَّل حافةٍ من قرص الشّمس، كان شعاعها على كتف الشّيخ اليُمْنى.

فقال الشّيخ:

- «إنّها تتَّجه شمالًا».

وفكّرَ: «إنَّ الّتيّار سيجرفنا بعيدًا في اتِّجاه الشَّرق، أَتمنّى أن تُحوِّل السَّمكة وِجْهتها مع الّتيّار، فهذا سيدلُّ على أَنَّها مُتعَبة».

وعندما ارتفعت الشَّمس أكثر، أَدركَ الشّيخ أنَّ السَّمكة لم تكُن مُجهَدة، وليس ثمّة سوى علامة إيجابيّة واحدة: تلك هي انحراف الخيط الّذي يدلُّ على أَنَّ السّمكة تسبح على عُمقٍ أقلّ من السّابق، وهذا لا يعني بالضَّرورة أَنَّها ستقفز، ولكنَّها

قد تفعل ذلك.

قال الشّيخ:

- «دعها -ياربِّ- تقفز، فَلَديّ ما يكفي من الخيط لِتَدبُّرها».

وفكَّرَ: «لعلَّني إذا ما استطعتُ أن أزيد الضَّغط عليها قليلًا فقط، فإنّ ذلك سيؤلمها، وستقفز، ومادام الوقت الآن نهارًا، فلتقفز لكي تملأ الخياشيم على طول عمودها الفقريّ بالهواء، وحينئذٍ لا تستطيع الغوص إلى الأعماق لتموت هناك».

حاولَ أَن يزيد الضَّغطَ، ولكنَّ الخيط كان مُتوتِّرًا إلى الغاية القصوى لدرجة الانقطاع، منذ أن علق الشِّصّ بالسَّمكة، وشعرَ الشّيخ بهذه الصُّعوبة عندما مال بظهره إلى الخلف ليجرَّ الخيط، فأدركَ أَنَّه لا يمكنه أَن يشدّه أكثر من ذلك، وفكَّرَ: «إنّني يجب ألّا أجذب الخيط بشدّةٍ أبدًا، فكلُّ جذبةٍ مفاجِئةٍ توسِّع الجرح الّذي أحدثه الشِّصُّ في فم السَّمكة، وحينذاك، عندما تقفز السَّمكة فقد ترمي الشِّصّ، وعلى أيّة حال، فإنَّني أشعر بالتّحسُّن بعد شروق الشَّمس، وهذه المَرَّة لا رغبة لديّ في التَّحديق فيها».

كانت هناك طحالبُ صفراءُ قد علقتْ بالخيط، ولكنَّ الشّيخ يُدرك أنّها فقط تزيد من الحِمل الّذي تجرّه السَّمكة، فَسُرَّ بذلك، إنَّها طحالب الخليج الصَّفراء الّتي أَحدَثتْ كثيرًا من اللَّمعان الفوسفوريّ خلال اللَّيل.

قال الشّيخ:

- «أيَّتها السَّمكة، إنّني أُحبُّكِ وأحترمكِ كثيرًا جدًّا، ولكنَّني سأقتلكِ قبل أن ينقضي هذا اليوم».

وقال في نفسه: «لنأمل ذلك».

أقبل طيرٌ صغيرٌ في اتّجاه المركبِ من جهة الشَّمال، كان من الطُّيور المغرِّدة، ويحلِّق على مستوًى منخفضٍ جدًّا فوق الماء، كان من اليسير على الشّيخ أن يفهم أنّ الطَّيرَ مُتعَبٌ كثيرًا.

بلغ الطّيرُ مؤخَّر القارب، وحطَّ عليه ليستريح، ثمّ حام حول رأس الشّيخ، واستقرَّ على الخيط حيث ارتاح ارتياحًا أفضل.

سألَ الشّيخ الطّيرَ:

- «كم عمرُكَ؟ أهذه هي رِحلتكَ الأولى؟».

نظرَ الطَّيرُ إليه عندما تكلَّم، وكان الطَّيرُ مُتعَبًا جدًّا لدرجة أَنَّه لم يتفحّص الخيط عندما حطَّ عليه وهو يتأرجح وقدماه

الرَّقيقتان تتشبَّثان به بشدَّة.

قال الشّيخ له:

- «إنّه ثابت، وفي غاية الثَّبات، وينبغي ألّا تكون على تلك الحالة من التَّعب بعد ليلة لا ريح فيها، فما الّذي يأتي بالطُّيور؟».

وفكّرَ الشّيخ: «إنّها الصُّقور الّتي تخرج إلى البحر لملاقاة هذه الطُّيور»، ولكنَّه لم يقُل شيئًا من ذلك للطَّير الّذي لا يستطيع أن يفهمه على أيّة حال، والّذي سيتعلَّم شيئًا عن الصُّقور في القريب العاجل.

قال الشّيخ:

- «انعمْ براحة جيّدة -أيُّها الطَّير الصَّغير- ثمّ اذهبْ إلى البَرِّ، واغتنمْ فُرصتكَ مثل أيِّ إنسانٍ أو طيرٍ أو سمكة».

وما شجّعه على الكلام أن ظهره قد تيبَّسَ خلال اللّيل وصار الآن يؤلمه بحقّ.

قال:

- «حلَّ ضيفًا في منزلي إذا أحببْتَ، ولكن يؤسفني -أيّها الطَّير- أنّني لا أستطيع الآن أن أنشر الشّراع، وآخذكَ

إلى البَرِّ مع النَّسيم الخفيف الّذي يهبّ، لا أخفي عليك ذلك، فأنا أتحدّث مع صديق».

في تلك اللّحظة بالذّات، قامت السَّمكة بحركةٍ مفاجِئة أسقطت الشّيخ على قاعِ المَركب، وكانت ستجرّه إلى خارج المركب لو لم يتماسَكْ، ويُرْخِ الخيط بعض الشَّيء.

لقد طار الطَّير حال اهتزاز الخيط، ولكنّ الشّيخ لم يتمكَّن حتّى من رؤيته وهو يرحل، وتحسَّسَ الخيط بيده اليُمْنى في عنايةٍ ، فلاحظ أنّ الدّم يسيل من يده.

قال الشّيخ بصوتٍ عالٍ:

– «إذن، لا بُدّ أن شيئًا آلمَ السَّمكة».

وسحبَ الخيط إلى الخلف ليرى ما إذا كان باستطاعته أن يقلب السَّمكة، ولكنْ ما إن وصل الخيط إلى نقطة الانقطاع، حتّى توقّفَ الشّيخ عن السَّحب، واستقرَّ في المركب ليواجِه شدّ الخيط.

وقال:

– «إنَّكِ تشعرين بالألم الآن، أيَّتها السَّمكة، ويعلم اللهُ أنَّني كذلك».

أسئلةُ الفصلِ الرّابعِ

1. بدأ التّعبُ يظهَرُ على الشّيخ، لكنّهُ آثَرَ عدمَ الاستسلامِ، فما الّذي يُضيفُهُ هذا إلى صفاتِهِ؟
2. ما الّذي تَستشعرُهُ مِنْ مُخاطبةِ الشّيخِ للسّمكة؟ وما الّذي تظنُّ أنّهُ كانَ يشعرُ بِهِ في تلك اللّحظاتِ؟
3. كَرّرَ الشّيخُ أكثر من مرّةٍ –وهو يُقاسي في البحرِ وحدَهُ، وَيُصَبِّرُ نفسَهُ، والسّمَكةُ تَسحَبُهُ بِلا هوادةٍ– قولَهُ: «أَتمنّى لو كان لديَّ الصَّبيُّ»، فما الّذي يدلُّ عليه ذلك؟
4. أيميلُ الإنسانُ –عادةً– في لحظاتِ الفَرحِ الكُبرى أو التَّرَقُّبِ والانتظارِ، أو الصّمودِ والمُقاومةِ إلى الرِّفقةِ أم الوَحدةِ؟ دافِعْ عَنْ رأيكَ.
5. لماذا تَمنّى الشّيخُ أنْ تُحَوِّلَ السّمكةُ وجهتَها معَ التّيّارِ وفقَ قولِهِ: «إنَّ التّيّار سيجرفنا بعيدًا في اتِّجاه الشَّرق، أَتمنّى أن تُحوِّل السَّمكةُ وِجْهتها مع التّيّار»؟
6. حتّى هذه النَقطة من الرّوايةِ، كيف تتوقّعُ أن تكونَ النّهايةُ؟

الفصلُ الخامسُ

تلفّتَ حوله باحثًا عن الطَّير، لأنَّه كان سيرتاح لرفقته، ولكنَّ الطَّير كان قد مضى إلى حاله.

وفكّرَ الرَّجل: «إنَّكَ لم تبقَ طويلًا، ولكنَّ طريقك أَصعب حتّى تصل الشّاطئ، كيفَ تركتُ السَّمكة تُسبِّب لي جُرحًا بتلك السَّحبة السّريعة الّتي قامتْ بها؟ لابُدَّ أنَّني أصبحتُ غبيًّا جدًّا، أو ربَّما كنتُ أنظر إلى الطَّير الصَّغير، وأفكِّر فيه. والآن، سأنتبه إلى عملي ثمّ يجب عَليَّ أن آكل سمكة التّونة لِئلّا تخور قواي».

وقال بصوتٍ مرتفع:

– «أتمنّى لو كان الصَّبيُّ هنا، وكان لديّ بعض الملح».

حوّلَ ثِقل الخيط إلى كتفه اليُسْرى، وانحنى في حذرٍ؛ ليغسل يده في مياه المحيط، ويُبقيها مغمورةً هناك أكثر من دقيقة، وهو يشاهدُ الدَّمَ ينساب بعيدًا، وحركةَ الماء الثّابتة على يده، فيما كان القارب يواصل سيره.

قال:

– «لقد تباطأَ سيرُ السَّمكة كثيرًا».

كان الشّيخ يُفضِّل أن يُبقي يده في الماء المالح مدّةً أطول، ولكنَّه كان يخشى جذبةً مُفاجِئةً أُخرى من السَّمكة؛ فنهضَ مُتماسِكًا، ورفعَ يده في اتِّجاه الشَّمس. كان مجرَّد احتزاز الخيط في يده هو الّذي جرح لحمها، ولكنَّ الجرح كان في الجزء الفاعل من يده، وكان يعلم أنّه سيحتاج إلى يدَيْه قبل أن تنتهي المُهمّة، ولم يُرِد أن يُصاب بالجرح قبل أن تبدأ تلك المهمّة.

وقال، عندما جفّتْ يده:

– «الآن، يجب أن آكل سمكة التّونة الصَّغيرة، وأستطيع أن آخذها بالخطّاف، وآكلها هنا وأنا مرتاح».

انحنى، ووجد سمكة التّونة تحت مؤخَّر القارب، وسحبها بالخطّاف نحوه، مُبعِدًا إيّاها عن الخيوط المُلتفَّة، وأَسْندَ الخيط إلى كتفه اليُسْرى مرّةً أخرى، واستندَ إلى ذراعه ويده اليُسْرى، وأخذ سمكة التَّونة من رأس الخطّاف، وأعاد الخطّاف إلى مكانه. وضعَ إحدى ركبتيه على السَّمكة، وقطع منها شرائح من اللَّحم الأحمر الدّاكن بصورةٍ طوليّة من مؤخَّر الرَّأس إلى ذيل السَّمكة، كانت شرائح إسفينيّة الشَّكل، قطعها من منطقة

قريبة من عظم الظَّهر نزولًا إلى حافّة البطن، وعندما أتمَّ قطع ستّ شرائح، نشرها على خشب مُقدَّم القارب، ومسحَ سكّينه على سرواله، ورفع بقايا السَّمكة من الّذيل، ورماها في البحر.

قال:

– «لا أظنُّ أنَّني أستطيع أن آكل سمكةً كاملة».

وأعملَ سكّينَهُ في إحدى الشَّرائح، وكان يشعر بشدّةِ ضغط الخيط المستمرّ، وتشنّجتْ يده اليسرى؛ لأنّها كانت تُمسِك بالخيط بشدّة، فنظر إليها باشمئزاز، وقال:

– «أيّ نَوعٍ من اليد هذه، تشنّجي إذنْ إذا أردْتِ، اجعلي من نفسكِ مخلبًا، ولن ينفعكِ ذلك بشيء».

وقال في نفسه وهو ينظر في اتِّجاه الماء الدّاكن إلى ميلان الخيط: «هيّا، كُلْ سمكة التّونة الآن، وستقوّي يدَكَ، إنَّها ليست غلطة اليد، بل أنتَ الّذي أمضيتَ ساعات طويلة مع السَّمكة، ولكنَّك تستطيع أن تبقى معها إلى الأبد، كُلِ التَّونة الآن».

تناول قطعةً، ووضعها في فمه، ولاكها ببطء، لم تكُن سيِّئةَ الطَّعم.

وقال في نفسه: «امضَغْها جيّدًا، وخُذْ عصيرها كُلّه، ليست سيِّئة إذا أُكِلَتْ مع قليلٍ من الحامض، أو اللّيمون، أو الملح».

وسأل يدَه المتشنّجة:

– «كيفَ تشعرين، أَيَّتها اليد؟ سآكل المزيد من أجلكِ».

وأكلَ الجزء الآخر من الشَّريحة، الّتي كان قد قسمها إلى شطرَيْن، ولاكها بعنايةٍ، ثمّ بصق الجلد.

– «كيف تسير الأمور، أيّتها اليد؟ أمْ أنّه من المُبَكِّر أن تعرفي»؟

وتناولَ شريحةً كاملةً أُخرى، ومضغها.

وقال في نفسه: «إنَّها سَمكةٌ قويّةٌ مليئةٌ بالدّم، وأنا محظوظ لوقوعي عليها، وليس على سمكة دولفين؛ سمكة الدولفين حلوة أكثر مما ينبغي، أمّا هذه السمكة فحلاوتها خفيفة، ولا تزال بكامل قوّتها».

وفكَّرَ: «ومع ذلك لا معنى في أن يكون المرء غير واقعيّ، تمنّيتُ لو كان لديّ بعض الملح، فأنا لا أعرف ما إذا كانت الشَّمس ستُفسِد ما تبقّى من السَّمكة أَم ستجفِّفه، ولهذا فمن الأفضل أن آكلَ جميع ما تبقّى على الرَّغم من أنَني لستُ

جائعًا، والسَّمكة ما زالت هادئةً وثابتة، سآكل كُلَّ ما تبقّى، وحينئذٍ سأكون على استعداد».

وقال:

- «اصبري -أَيَّتُها اليد- فأنا أفعل هذا من أجلكِ».

وقال في نفسه: «تمنَّيتُ لو كنتُ أستطيع إطعام السَّمكة، فهي أُختي، ولكن يجب أن أقتلها، ولكي أَفعل ذلك يتعيَّن عليَّ أن أبقى قويًّا».

ثمّ أَكلَ -ببطءٍ ووعي- جميعَ شرائح السَّمكة الإسفينيّة الشَّكل.

اعتدلَ وهو يمسحُ يدَهُ على سرواله.

قال:

- «الآن، بإمكانكِ أن تُطلِقي الحبل -أيّتها اليد- وسأتدبَّر السَّمكة باليد اليُمْنى وحدها، حتّى تنتهي أنتِ من هذه السَّخافة».

وضعَ قدمَه اليُسرى على الخيط السَّميك الّذي كانت تُمسك به يده اليُسرى، واضطجعَ على ظهره لمجابهة الضَّغط الواقع عليه.

قال:

– «ساعدني يا ربِّ للتخلُّص من التَّشنُّج؛ لأنَّني لا أعرف ما ستفعله السَّمكة».

وقال في نفسه: «ولكنَّها تبدو هادئةً، وتتابع خطّتَها»، وفكّرَ مُتسائلًا: «ولكنْ ما خطَّتها؟ وما خطَّتي؟ خطَّتي يجب أن أُعَدِّلها حسب خطَّتها، بسبب ضخامة حجمها، فإذا قفزَتْ أستطيع أن أقتلها، ولكنّها تبقى في الأعماق إلى الأبد، ولهذا فأنا سأظلّ معها إلى الأبد».

فَرَكَ يدَهُ المُتشنِّجةَ بسروالِه، وحاولَ تليينَ الأصابعِ، ولكنّها لم تَتخلَّص من التّشنُّجِ، وفكّرَ: «ربما ستتخلَّص من تشنُّجها بفضل الشَّمس، ربَّما ستنفكّ من تشنُّجها عندما تُهضَم سمكة التّونة النيِّئة القويّة الّتي أكلتُها، وإذا كان عَليَّ أن أستعمل هذه اليد، فسأفكُّها من تشنُّجها، مهما كلَّفَ ذلك، ولكنَّني لا أريد فكَّها الآن بالقوَّة، سَأدَعها تتليَّن بنفسها لتعود إلى حالتها الطبيعيّة برضاها. وبعد ذلك كلِّه فأنا الّذي بالغْتُ في استخدامها في أثناء اللَّيل عندما كان من الضَّروريّ حَلُّ مختلفِ الخيوط وربطها ببعضها».

ألقى نظرةً عبر البحر فأَدركَ كم هو وحيدٌ الآن، ولكن

كان في ميسوره أن يرى مخروطاتِ الضَّوء في المياه العميقة المُظلِمة، والخيطَ المُمتدّ طويلًا، والتموّجَ الغريب للسُّكون. أخذتِ الغيوم تتكاثف الآن بفعل الرّياح التِّجاريّة، ونظر أمامه فرأى سِربًا من البطِّ البَريّ يُحلِّق على صفحة السَّماء فوق الماء، ثمّ يختفي، ثمّ يظهر مَرَّةً أُخرى، وأَدركَ أنّه لم يخرج قطّ إنسانٌ بمفرده إلى عُرض البحر.

وراح يُفكِّر في بعض الرِّجال الّذين يخافون أن يبتعدوا عن مرأى اليابسة في قاربٍ صغير، فأدركَ أنَّهم على صوابٍ، لاسيّما في الشّهور ذات المناخ السَّيّئ المُتقلِّب، ولكنَّهم الآن في أشهر الأعاصير، وعندما لا توجد أعاصير، يكون الجوُّ في هذه الأشهر الأفضل في العامِّ كلِّه.

وعندما يوجد إعصار فأنتَ دائمًا ترى علاماتِه في السَّماء قبل أيام، إذا كنتَ في البحر، ثمّ فكَّرَ: «بَيد أنَّهم لا يرون تلك العلامات من البَرِّ؛ لأنَّهم لا يعرفون ما الّذي ينبغي أن يتطلَّعوا إليه، فاليابسة لا بُدّ أن تُسبِّب فرقًا في شكل الغيوم كذلك، ولكن ليس ثمّةَ إعصارٌ قادمٌ الآن».

صوَّب نظره إلى السَّماء فرأى السَّحاب الأبيض يتجمَّع مثل أكوامٍ لذيذةٍ من البوظة، وفوقها ريشُ الغمامِ الرَّقيق على سماءِ

شهر سبتمبر/أيلول العالية.

قال:

- «نسيمٌ عليل، هذا طقسٌ أفضل لي، وليس لكِ أيَّتها السَّمكة».

كانت يده اليُسرى ماتزال مُتشنِّجة، ولكنَّه كان يتخلَّص من التشنُّج تدريجيًّا.

وفكَّرَ: «إنَّني أكره التَّشنُّج؛ فهو يمثّل خيانةَ الجسدِ لصاحبه، وإنَّ المرء يشعر بالإذلال أمام الآخرين من جَرّاءِ إسهالٍ يصيبه بسبب التَّسمُّم بالتّومين، أو من جرّاء التَّقيُّؤ النّاتج عنه، أما التَّشنُّج، فقد كان يعتبره الشّيخ بمثابة إذلال الإنسان لنفسه، خصوصًا عندما يكون بمفرده».

وقال في نفسه: «لو كان الصَّبيُّ هنا لاستطاع تدليكها لي، وتليينها ابتداءً من الذِّراع فنازلًا، ولكنَّها ستحلُّ عقدتها بنفسها».

وفجأَةً أحسَّ -من خلال يده اليُمنى- بِفَرقٍ في سحبِ الخيط حتّى قبل أن يُلاحِظ التَّغيُّر في ميلانه في الماء، فانحنى على الخيط، وهو يضرب يدَه اليُسرى المُتشنِّجة على وِرْكِهِ

بشدَّةٍ وبسرعة، فرأى أنَّ الخيط يرتفع ببطءٍ إلى الأعلى.

قال:

- «إنَّ السَّمكة تصعد إلى الماء، هيّا، أرجوكِ، يا يدي، أَسْعِفيني».

ارتفعَ الخيطُ ببطءٍ وباطِّراد، ثمّ انفتحَ سطحُ المحيط أمام القارب، وانبثقت السَّمكة، وبرزت إلى الأعلى بطولها الّذي لا نهاية له، والماء يقطر من جانبيها، كانت تلمع في الشَّمس، ورأسها وظهرها بلونٍ قرمزيٍّ داكن، على حين بدت الخطوط على جانبَيْها -في الشَّمس- عريضةً ذات لونٍ أرجوانيٍّ خفيف، وسيفها بطول مضرب (البيسبول)، ومُدبَّب في نهايته مثل سيفٍ مستقيم، وارتفعَتْ من الماء بكامل طولها، ثمّ غطستْ فيه بنعومة مثل غطّاسٍ ماهر، ورأى الشّيخ ذيلَها الضّخم ذا النَّصل المِنجليِّ الشَّكل يغوصُ في الماء، وراح الخيط يجري بسرعة.

قال الشّيخ:

- «إنَّها أطول من المركب بِقدَمَيْن».

وكان الخيط ينفد بسرعةٍ، ولكن باطِّراد، ولم تكُنْ السَّمكة

مذعورة، فراح الشّيخ يحاول بكلتا يديه الحيلولةَ دون انقطاع الخيط، فقد أدركَ أَنَّه ما لم يتمكَّن من إبطاء السَّمكة بالضغط المستمرِّ فإنَّها قد تستنفد الخيط كلَّه، وتقطعه.

وفكّرَ: «إنَّها سمكةٌ ضخمةٌ، ويجب عَليَّ ترويضها، يجب ألّا أَدَعها تُدرِك قوَّتها وما تستطيع أن تفعله إذا انطلقتْ هاربةً، لو كنتُ مكانها لبذلتُ قصارى جهدي الآن، وابتعدتُ حتّى ينقطع شيءٌ ما، ولكنْ، شُكرًا لله؛ لأنّ الأسماك ليست في مثل ذكائنا، نحن الّذين نقضي عليها، على الرّغم من أنَّها أكثرُ نُبلًا، وأكبر قابليّةً منّا».

كان الشّيخ قد رأى بضع سمكاتٍ ضَخْمات، كما شاهد سمكاتٍ عديدةً تَزِنُ الواحدةُ منها أكثر من ألف رطل، واصطاد في حياته اثنتَيْن لهما مثل ذلك الحجم، ولكنَّه لم يكُن بمفرده بتاتًا، أما الآن فهو وحدَه، وبَعيدًا عن مشهد اليابسة، وهو مشدود إلى أكبر سمكة شاهدها في حياته كلِّها، بل أكبر من أيَّة سمكة سمع بها على الإطلاق، ويده اليُسرى مازالت مُتصلِّبة مثل مخالبِ النِّسرِ النّاشبةِ في فريسة.

قال في نفسه: «ومع ذلك، سَتتخلَّص من تشنُّجها، من المؤكَّد أَنَّها ستتخلَّص من تشنُّجها لتساعد يدي اليمنى،

هنالك ثلاثة أشياء متآخية متلازمة: السَّمكة ويداي، يجب أن تتخلَّص من تشنُّجها، إذْ لا يليق بها أن تكون مُتشنِّجة، وأبطأَتِ السَّمكةُ مرّةً أُخرى، وراحتْ تسير بسرعتها العاديّة».

وفكَّرَ الشّيخ مُتسائلًا: «لماذا قفزَتْ؟ لقد قفزَتْ كما لو كانت تُريني كم هي كبيرة!»، وقال في نفسه: «وعلى أَيّة حال، فأنا أعرف الآن، أتمنّى لو كنتُ أستطيعُ أن أُريها أيَّ نوعٍ من الرّجال أنا، ولكنَّها حينئذٍ سترى يدي المُتشنِّجة، دعها تحسبُ أنَّني أكثر رجولةً ممّا أنا عليه، وسأكون كذلك». وقال في نفسه: «تمنّيتُ لو كنتُ أنا السَّمكة، بجميع ما لديها، مُقابل ما لَديّ من إرادةٍ وذكاءٍ فقط».

استندَ استنادًا مُريحًا إلى الخشب، وَتقبّلَ أَلَمَه كما هو، وراحَتِ السَّمكةُ تسبح سباحةً ثابتة، والقارب يتحرَّك ببطءٍ في المياه الدّاكنة اللَّون. كان هنالك مَدٌّ محدود للبحر مع هبوبِ الرّيح من جهة الشَّرق، وعند الظُّهر زال تشنُّجُ يَدِ الشّيخ اليُسرى.

قال الشّيخ وهو يُعدّل الخيط على الكيس الّذي يُغطّي كتفَيه:

– «خبرٌ سَيِّئٌ لكِ، أيَّتها السَّمكة».

كان مرتاحًا، ولكنَّه يتألَّم، على الرَّغم من أنّه لم يعترف بأَلَمه مطلقًا.

صارت الشَّمسُ حارَّة على الرَّغم من هبوب النَّسيم العليل.

قال:

- «من الأفضل أن أُجدِّد طُعْم الصِّنّارة الصَّغيرة الموجودة في مؤخَّر القارب، فإذا قرَّرتِ السَّمكةُ البقاء ليلةً أُخرى فسوف أَحتاج إلى أن آكل مرّةً ثانية، وقد نقصَ الماءُ في القنّينة، لا أَظنُّ أنَّني أستطيع أن أصطاد غيرَ سمكة دولفين صغيرة هنا، ولكنْ إذا أكلتُها وهي طازجة فإنّي سأستسيغ طعمها، أتمنّى أن تحطَّ سمكةٌ طائرة في القارب هذه اللّيلة، غير أنَّني ليس لَديّ ضوءٌ لاجتذاب الأسماك الطّائرة، فالسَّمكة الطّائرة لذيذة عندما تؤكَل نيِّئة، كما لا يتعيَّن عليَّ تقطيعها، يجب أن أحتفظ بِقِواي جميعها الآن. يا إلهي، لم أَكُنْ أعلم كَمْ هي كبيرة هذه السَّمكة».

وقال:

- «ومع ذلك فإنّي سأقتلها، رغم كلِّ عظَمتها ومجدها».

وأضاف في نفسه: «على الرَّغم من أنَّ ذلك ليس عَدلًا، ولكنّي سأُريها ماذا يستطيع الرَّجل أن يفعل، وما يحتمله الرَّجل».

وقال:

– «أخبرتُ الصَّبيَّ أنَّني شيخٌ غريبُ الأطوار، وعليَّ الآن أن أُبرهن على ذلك».

وكأَنَّ آلاف المَرّات الّتي برهن فيها على ذلك لم تَعْنِ شيئًا، الآن يُبَرهِن على ذلك مَرّةً أُخرى، فكلُّ مرّةٍ هي جديدة، ولم يفكِّر في الماضي قطّ وهو يفعل ذلك.

وفكّرَ: «ليتَ السَّمكة تنام، فأستطيعُ أن أنام، وأَحلُم بالأُسود، لماذا تكون الأُسود الشَّيء الوحيد المُتبقّي لي؟»، وقال مُخاطِبًا نفسه: «لا تُفكِّرْ، أيُّها الشّيخ، استرحْ بلطفٍ الآنَ على الخشب، ولا تفكِّرْ في شيء، السَّمكة تعمل حاليًّا، أمّا أنتَ فاعملْ أقلَّ ما يُمكِنك».

كان النَّهار يقترب من العصر، ومازال القارب يتحرَّك ببطءٍ وثبات، ولكنْ ثمّةَ سَحْبٌ إضافيٌّ بفعل النَّسيم الشَّرقيّ، فأبحرَ الشّيخ بلطفٍ مع الأمواج، وصار أَلَمُ الحبل على ظهره أيسرَ وأخفّ.

وعند حلول العصر، أخذ الخيط يرتفع مَرَّةً أُخرى، ولكنَّ السَّمكة ظلّتْ تسبح في مستوى عمقٍ أعلى بقليل من السّابق، وكانت الشَّمس على ذراع الشّيخ اليسرى وكتفه اليسرى وعلى ظَهره؛ ولهذا عرف أنَّ السَّمكة قد تحوّلت نحو الشَّمال الشَّرقيّ.

الآن وقد رأى السَّمكة مَرَّةً، أصبح في إمكانه أن يتصوَّرها وهي تسبح في الماء، وزعانفها الأرجوانيّة الزّاهية منبسطة مثل الأجنحة، وذيلها المنتصب الضَّخم يشقّ الظَّلام، وتساءل الشّيخ في نفسه: ما مَدى رؤية تلك السَّمكة في الأعماق، عَينها ضخمة، والفرس الّتي لها عَينٌ أصغرُ بكثير تستطيع أن تبصر في الظَّلام، وفي السّابق كنتُ أستطيع أن أُبصر جيّدًا في الظَّلام، وليس في الظُّلمة الحالكة، ولكن كما ترى القطَّة تقريبًا.

وساعدتِ الشَّمسُ وتحريكُه المستمرّ للأَصابع على إزالة تشنُّج يده اليسرى تمامًا الآن، فشرعَ بنقل بعض الضَّغط إليها، وحرَّكَ عضلات ظهره؛ ليخفِّفَ من وطأة الحبل قليلًا.

قال بصوتٍ عالٍ:

– «إذا لم تكوني مُتعَبة أيَّتها السَّمكة، فلابُدَّ أنَّكِ غريبةٌ جدًّا».

شعرَ الآن بتعبٍ شديد، وكان يعلم أنَّ اللّيل سيحلُّ عمّا قريب، فحاول أن يفكِّر في أشياءَ أخرى، فَكّرَ في المُباريات الكبرى الّتي كانت بالنّسبة إليه بالإسبانيّة (كران ليخاس)، وكان يعرف أن فريق (يانكيّي نيويورك) سيلعب ضدَّ فريق (نمور ديترويت).

وفكّرَ في نفسه: «هذا هو اليوم الثّاني الّذي لم أطَّلع فيه على نتائج الألعاب، ولكن يجب أن تكون لديّ الثّقة بـِـ(ديماجيو) العظيم الّذي يفعل كُلَّ شيءٍ على الوجه الأكمل، حتّى عند اشتدادِ ألمِ نتوءِ العَظْم في كَعبه»، ثمّ سأل نفسه: «ما هو نتوء العظم؟ نحن لم نُقاسِ منه، أيمكن أن يكون الألم النّاتج عنه مثل نقرة الدّيك المُقاتِل في كعب إنسان؟ لا أظنُّ أنّني أستطيع أن أحتمل ذلك، أو أحتمل فقدانَ عَينٍ أو كلتا العَينَيْن، وأواصل القتال كما تفعل الدّيوك المُقاتِلة، إنَّ الإنسان ليس كثيرًا إذا ما قورن بالطُّيور العظيمة والوحوش الضّارية، ومع ذلك، فأنا أُفضِّل أن أكون ذلك الحيوان في أعماق البحر المظلمة»، وأضافَ بصوتٍ عالٍ:

– «ما لم تأتِ أسماكُ القرش، فإذا جاءتْ أسماك القرش، فالله يرحم تلك السَّمكة، ويرحمني».

وفكّرَ: «هل تعتقد أَنَّ دي ماغيو العظيم سيبقى مع سمكةٍ المُدَّة الطويلة نفسها الّتي سأُمضيها مع هذه السَّمكة؟ أنا متأكِّد من أنَّه سيمكث تلك المُدَّة وأكثر، ما دام أنَّه شابٌّ وقويّ، إضافةً إلى أنَّ والده كان صيّادَ سمك، ولكن هل سيؤلمه نتوءُ العَظْم بصورةٍ لا تُحتمَل؟».

وأجابَ بصوت مرتفع:

- «لا أدري، فأنا لم أُصَب أبدًا بنتوء العظْم».

وعندما آلتِ الشَّمس إلى الغروب، ولكي يُعزِّز نفسه بثقةٍ أكبر، تذكَّرَ كيف أنَّه -ذات مرّة- لعبَ في أحد مقاهي الدّار البيضاء (لعبة قوّة اليد) مع زنجيٍّ عظيم من (ثينفويغوس)، وكان ذلك الزّنجيُّ أقوى الرّجال في المرفأ، أَمضيا نهارًا وليلةً، وَمِرفقاهُما مرتكزان على خطٍّ رُسِمَ بالطَّباشير على المنضدة، وساعِداهُما مُنتصبان باستقامة، ويداهما متشابكتان بشدّة، وكلُّ واحدٍ منهما يحاول إنزال يد الآخر إلى المنضدة، وكان هناك رهان كثير عليهما، وراح النّاس يدخلون إلى الغرفة، ويخرجون منها تحت أضواء فوانيس الكيروسين، وكان هو يحدّق في ذراع الزِّنجي ويدِه ووجهِه، وغيّروا المُحكِّمين كلَّ أربع ساعات بعد السّاعات الثمّاني الأولى؛ لكي يتمكّن

المحكّمون من النّوم. وسال الدّم من تحت أظافر يده وأظافر يد الزِّنجي، وكان كلُّ واحدٍ منهما يحملق في عينَي الآخر ويده وساعِده، وطفق المُتراهنون يدخلون الغرفة، ويخرجون منها، ويجلسون على كَراسٍ عالية عند الحائط، ويراقبون، وكانت الجدران مَطليّةً باللّون الأزرق اللّمّاع، ومصنوعةً من الخشب، والقناديل تُلقي بظلالها عليها، وكان ظِلُّ الزِّنجيِّ ضخمًا، ويتحرّك على الجدار عندما يُحرِّك النّسيمُ القناديلَ.

كان احتمال الفوز يتأرجح بينهما طَوالَ اللَّيل، وكانوا يسقون الزِّنجيَّ عصير قصب السُّكَّر، وبعد أن يشرب الزِّنجيّ العصير، يحاول أن يبذل جهدًا جَبّارًا، وقد استطاع مَرَّةً أن يزحزح يد الشّيخ الّذي لم يكن شيخًا يوم ذاك وإنّما (سنتياغو) البطل، ثلاثَ بوصات تقريبًا عن الخطِّ، ولكنَّ الشّيخ رفع يده إلى الأعلى ليعود إلى التَّعادل التامّ مرَّةً أُخرى، كان متأكِّدًا حينذاك أنَّه سيتغلَّب على الزِّنجيّ الّذي كان رجلًا لطيفًا ورياضيًّا عظيمًا، وعند انبلاج ضوء النَّهار، وفيما كان المتراهنون يطالبون بأن تكون النّتيجةُ التَّعادلَ، وكان الحَكَم يهزّ رأسه موافِقًا، أطلقَ الشّيخ مجهودًا، وأجبر يد الزِّنجيِّ على الانثناء إلى الأسفل... فالأسفل... حتّى استقرَّتْ

على الخشب... كانت المُباراة قد بدأتْ صباحَ يومٍ من أيام الآحاد، وانتهت صباح يوم الإثنين، وكان عددٌ من المتراهنين قد طالبوا بالتّعادل، لأنّه كان يتعيَّن عليهم الذّهابُ إلى الميناء للعمل في تحميل أكياس السُّكَّر، أو للعمل في شركة (هافانا) للفحم الحجريِّ، ولولا ذلك لرغب كلُّ واحد في أن تستمرَّ المباراة حتّى النِّهاية، ولكنّه أنهاها على أيّة حال قبل أن يضطرّ أيُّ واحدٍ إلى الذَّهاب للعمل.

ولوقتٍ طويلٍ بعد تلك المُباراة، كان كُلُّ واحدٍ يدعوه بِـــ(البطل)، ثمّ كانت هناك مباراةُ الإياب في فصل الرَّبيع، ولكنْ لم يراهنوا بكثيرٍ من المال، وقد فاز هو كذلك بسهولةٍ تامّة؛ لأنَّه كان قد حَطّم ثقة ذلك الزِّنجيّ من (ثينفويغوس) في المُباراة الأولى، وبعد ذلك انخرط في مبارياتٍ قليلة ثمّ توقّف بالمَرّة، لقد قرَّرَ أنَّه يستطيع التّغلّب على أَيِّ فَردٍ إذا أراد، ولكنّه ارتأى أنَّ ذلك سيضرُّ بيده اليمنى الّتي يستعملها في الصَّيد، وجرّب يده اليسرى في بعض المُباريات التَّدريبيّة، ولكنَّ يده اليسرى كانت تخونه دائمًا، ولا تفعل ما يأمرها به، وهو لم يثِقْ بها.

وفكّرَ في نفسه: «إنَّ الشَّمس ستحمِّصها جيّدًا الآن،

ويجب ألّا تتشنَّج عليَّ مرَّةً أُخرى، ما لم يشتدّ البَرد في اللَّيل، وإنّني أتساءل ما الّذي ستجلبه هذه الليلةُ»؟

ومرّتْ طائرةٌ فوق رأسه، وهي في طريقها إلى (ميامي)، وراقبَ ظلَّها الّذي أفزع مجموعات الأسماك الطّائرة، وقال:

– «مع وجود هذه الكثرة من الأسماك الطّائرة هُنا، لابُدّ أن تكون هنالك دلافين»، ومالَ إلى الخلف شادًّا الخيط معه ليرى ما إذا كان من المُمكِن كسبُ أيِّ شيءٍ منه على حساب سَمكته، ولكنّه لم يتمكَّن، وبقي الخيط على توتّره وارتعاشه، وظلّ الماء يقطر منه وهو على وشك الانقطاع، وتحرّك القاربُ إلى الأمام ببطءٍ، وراح هو يراقب الطّائرةَ حتّى لم يَعُد في وسعه رؤيتها.

وفكّرَ في نفسه: «لابُدَّ أنَّ السَّفر بالطّائرة أمرٌ عجيبٌ جدًّا، وأتساءل كيف يبدو البحر من ذلك الارتفاع؟ أحسب أَنَّهم يستطيعون رؤيةَ الأسماك بوضوحٍ ما لم يُحلِّقوا على علوٍّ شاهق، كَمْ أودّ أن أحلِّق على ارتفاع مائتي قامة على مهل؛ لأرى الأسماك من الأعلى، ففي قوارب صيد السَّلاحف كنتُ أقف على رأس السّارية، وحتّى من ذلك الارتفاع، رأيتُ الكثير. من هناك تبدو الدَّلافين أكثر اخضرارًا، وبإمكانك

أن ترى خطوطها وبقعها القرمزيّة، وباستطاعتكَ أن ترى المجموعةَ كلَّها وهي تسبح، فلماذا نجد أنَّ للأسماك السَّريعةِ الحركة جميعها في التّيار الدّاكن ظُهورًا قرمزيّة، وعادةً خطوطًا أو بُقعًا قرمزيّةَ اللَّون؟ طبعًا يبدو الدّولفين أخضر؛ لأنَّه في حقيقته ذهبيُّ اللّون، ولكنّه عندما يأتي ليتغذّى –وهو جائعٌ حقًّا– تظهر خطوطٌ قرمزيّةٌ على جانبَيْه، كما تظهر على جانبَي سمكِ المرلين، ألا يمكن أن يُعزى بروز هذه الخطوط إلى الغضب أو إلى السُّرعة الفائقة؟».

وقُبَيل حلول الظَّلام، وبينما كانا يمرّان بجزيرةٍ كبيرةٍ من أعشاب السّراخس المرتفعة والمتمايلة في البحر الضَّحل بلعَتْ سمكةُ دولفين صغيرة صنّارتَه الصّغيرة. رأى سمكة الدّولفين تلك أوّل مرَّةٍ عندما قفزت في الهواء وبدا لونها ذهبيًّا خالصًا على ضوء الشَّمس الأخير، وكانت تتلوّى، وتخبط ذيلها بضراوةٍ في الهواء، لقد قفزَتْ سمكة الدّولفين تلك مرَّةً تلو الأُخرى بطريقةٍ بهلوانيّةٍ من خوفها، فارتدَّ الشّيخ إلى مؤخَّر القارب، وأمسك بالحبل الكبير بيده اليمنى وذراعه، وسحب سمكة الدّولفين بيده اليسرى، ضاغطًا على ما يكسبه من الخيط في كلِّ مرّةٍ بقدمه اليسرى الحافية، وعندما صارت

سمكة الدّولفين في مستوى مؤخَّر القارب، وهي تَثِبُ، وتتخبَّط، وتعبر من جانبٍ إلى آخر في يأسٍ، انحنى الشّيخ، ورفع السَّمكة الذهبيّة الصّقيلة ببقعها الأرجوانيّة إلى مؤخَّر القارب، وكان فكّاها يعملان بعصبيّة في عضّات سريعة على الشِّصّ، وأمطرَتْ قاع المركب بضرباتٍ من جسدها المُسطَّح الطَّويل ومن ذيلها ورأسها، حتّى قام الشّيخ بضربها بهراوته على رأسها الذّهبيّ اللّامع إلى أن ارتعشَتْ، وهمدَتْ.

خلَّصَ الشّيخ السَّمكة من الشِّصّ، وأعاد وضع طُعْمٍ جديدٍ -سمكة سردين أخرى- على الشِّصّ، ورمى به إلى البحر، ثمّ رجعَ على مهل إلى مُقدَّم القارب، وغسلَ يده اليسرى، ومسحها على سرواله، ثمّ حوّل الحبل الثَّقيل من يده اليمنى إلى يسراه، وغسل يمناه في البحر، فيما كان يشاهد الشَّمس وهي تغطس في المحيط، وينظر إلى مَيلان الحبل الكبير، وقال:

- «إنّها لم تتغيَّر على الإطلاق».

ولكنَّه عند مشاهدة حركة الماء البطيئة على يده لاحظ أنَّها أبطأ بشكلٍ واضح، وقال: «سأثبِّتُ المجدافَيْن معًا في مؤخَّر القارب، وهذا سيُبطئ من سير السَّمكة في اللّيل، إنّها مُستعدّةٌ

للّيل، وأنا كذلك».

وفكّرَ: «من الأفضل نَزْع أحشاء سمكة الدّولفين بعد وقت قصير؛ من أجل حفظ الدَّم في لحمها، يُمكنني أن أفعل ذلك بعد قليل، وأُثبِّت المجدافَين لإعاقة الحركة في الوقت نفسه، ويحسنُ بي أن أدع السَّمكة الكبيرة هادئةً الآن، وألّا أُزعِجها كثيرًا عند مغيب الشَّمس، فغروبُ الشَّمس وقتٌ صعبٌ للأسماك جميعها».

تركَ يده تجفُّ في الهواء، ثمّ أَمسكَ الحبل بها، وأراح جسده قَدْرَ استطاعته، وترك نفسه يُجَرُّ إلى الأمام في اتّجاه خشب مُقدَّم القارب؛ لكي يتحمّل القارب ضغط الحبل بقدْر ما يتحمَّله هو أو أكثر.

وفكّرَ: «أنا أتعلَّم الآن كيف أفعل ذلك، أو هذا الجزء منه على أيّة حال، ثمّ تذكَّرَ كذلك أنَّ السَّمكة لم تأكل شيئًا منذ أن ازدردت الطُّعم، وأنّها ضخمة، وتحتاج إلى كثير من الطّعام، أمّا أنا فقد أكلْتُ سمكة التّونة كاملةً، وغدًا سآكل سمكة الدّولفين... وسمّاها السَّمكة الذّهبيّة، ربّما ينبغي أن أتناول شيئًا منها عندما أنظِّفها، وسيكون أكلها أصعب من أكل التّونة، ولكن ليس ثمّةَ شيءٌ سهل».

وسأل بصوتٍ عالٍ:

- «كيف تشعرين، أَيَّتُها السَّمكة؟ فأنا أشعر بخير، ويدي اليُسرى أحسن حالًا، ولديّ طعام لليلةٍ ونهار، اسحبي القارب، أَيَّتها السَّمكة».

لم يكُنْ يشعر حقًّا بخير، فالألم من جرّاء الحبل على ظهره قد تعدّى حدَّ الألم تقريبًا، وتحوّلَ إلى خدرٍ يُثير هواجسه، وفكّرَ: «ولكنَّني عانيتُ أشياء أَسْوأ من هذا، إنَّ يدي مجروحة قليلًا فقط، وزال تشنُّج يدي الأخرى، وساقاي على ما يُرام، وأنا الآن تفوّقتُ على السَّمكة في مسألة الغذاء كذلك».

أسئلةُ الفصلِ الخامسِ

1. تَتبَّعْ في هذا الفصلِ كُلَّ المَواضِعِ الّتي يَظهرُ لَكَ فيها أنَّ الشّيخَ يُقوّي عَزيمتَهُ، وَيُقاوِمُ الآلامَ والزّمانَ والسّمكةَ الّتي مازالَتْ تقودُهُ بِلا هَوادَةٍ.
   ما الّذي يَعكسُهُ ذلكَ في نَظَرِكَ؟

2. قال الشّيخُ في نَفسِهِ: «ولكنَّها تبدو هادئةً، وتتابعُ خطّتَها»، وفكّرَ متسائلًا: «ولكنْ ما خطَّتُها؟ وما خطَّتي؟ خطَّتي يجب أن أُعَدِّلها حسب خطَّتِها».
   ما الّذي تفهمه من كلام الشّيخ هذا؟

3. ما فائدةُ عَصيرِ قَصَبِ السُّكَّرِ حسبَ ما ذَكَرَهُ الشّيخُ في (لُعبَةِ قوّةِ اليدِ) الّتي خاضَها مع خَصمِهِ؟ وهل توافِقُهُ الرّأيَ في ذلك أمْ تُخالِفُهُ؟ وَهلْ ذلكَ مُبَرَّرٌ عِلميًّا؟

4. كيفَ تَصِفُ مشاعِرَكَ نحوَ الشّيخِ حتّى هذِهِ اللّحظةِ مِنَ الرّوايةِ؟

الفصلُ السّادسُ

لقد حلَّ الظَّلام الآن، فالظَّلام يهبط بسرعة بعد غروب الشَّمس في شهر سبتمبر/أيلول، واضطجعَ على الخشب البالي لمُقدَّم القارب، واستراحَ قَدْرَ المُستطاع. وبزغتْ طلائع النُّجوم، ولم يكُن يَعرف اسم النَّجم (رجل الجَبّار)، ولكنَّه رآه، فعلِم أنّ النُّجوم الأُخرى كُلّها سرعان ما ستبزغ، وسينتشر حوله أصدقاؤه البعيدون جميعهم وَشيكًا في أجواز السّماء.

وقال بصوتٍ عالٍ:

– «والسَّمكة صديقتي كذلك، فأنا لم أَرَ، أَوْ أَسمع بسمكةٍ مثلها قطّ، ولكنَّني يجب أن أقتلها، ومن سعادتي أنَّنا لسنا مُضطرّين إلى أن نحاولَ قتل النُّجوم».

وقال في نفسه: «تصوّرْ لو كان يتعيَّن على الإنسان كلَّ يوم أن يحاول قتل القمر، لَتَوَجَّب على القمر أن يلوذ بالفرار، ولكن تخيّلْ لو كان على الإنسان أن يحاول قتل الشَّمس كلّ يوم؟»، وفكَّر: «إنَّنا وُلِدنا مَحظوظين».

ثمّ شعرَ بالأسف للسَّمكة العظيمة الّتي ليس لديها ما تأكله، ولم يخفِّف تصميمه على قتلها من أسفه عليها أبدًا، وفكَّرَ:

«كم من إنسانٍ ستُطعمه هذه السَّمكة؟ ولكن هل يستحقُّ هؤلاء النّاس أكلها؟ لا، طبعًا، لا، ليس ثمّة مَن يستحقُّ أَكلها؛ نظرًا للطَّريقة الّتي تصرّفتْ بها، ولكبريائها العظيم».

وفكَّرَ: «لا أفهم هذه الأشياء، ولكنْ من حُسن الحظِّ أنَّه لا يتوجَّب علينا أن نحاول قتل الشَّمس، أو القمر، أو النُّجوم، يكفينا أن نعيش على البحر، ونأكل منه».

وقالَ في نفسه: «الآن يجب أن أفكّر في عرقلة حركة القارب، فلها مخاطرها، ولها حسناتها، فقد أفقدُ كثيرًا من الخيط فأفقد السَّمكة، إذا بذلَتْ مجهودًا. والعرقلة الّتي يُحدِثها المجدافان في محلِّها، إذ يفقد القارب خفّته جميعها، فخفّة القارب تُطيل معاناتنا معًا، ولكنّ فيها سلامتي؛ لأنَّ للسَّمكة سرعةً فائقةً لم تستعملها بعد، ومهما يكُن من أمر، فإنَّني يجب أن أنزع أحشاء سمكة الدّولفين، وأنظفها لئلّا تفسد، وأن آكل شيئًا منها لأكون قويًّا.

الآن سأستريح ساعةً إضافيّة، وعندما أشعر بأنَّ السَّمكة ماتزال قويّةً ومطَّردةَ الحركة سأعود إلى مؤخَّر القارب؛ لأُنجِز العمل، وأَتَّخذ القرار، وفي الوقت نفسه سأتمكّن من معرفة سلوكها، وما يطرأ عليه من تغيُّرات. المجدافان خدعةٌ بارعة،

ولكن آنَ الأوانُ للعمل من أجل السَّلامة، فماتزال السمكة قويّة، وقد رأيتُ الشِّصَّ في زاوية فمها، وقد أبقت فمها مُطبقًا بإحكام، إنَّ ضرر الشِّصِّ ليس شيئًا يُذكَر، ولكنّ ما نزل بها من جوع وكونها تواجه أمرًا لا تفهمه هو كلّ شيء. استرحْ الآن -أيُّها الشّيخ- ودَعْها تعمل حتّى يحين دورك في أداء المهمّة التّالية».

استراح مدةً ظنّها ساعتَيْن، فالقمر لم يبزغ بعد، ولم تكُن لديه وسيلةٌ لتقدير الوقت، كما أنَّ استراحته لم تكُن في حقيقتها إلا استراحةً نسبيَّة، فهو مايزال يتحمَّل جرّ السَّمكة على كتفَيه، ولكنَّه وضع يده اليسرى على حافّة مُقدَّم القارب العُليا، وألقى بمقاومة السَّمكة، أكثر فأكثر على المَركب نفسه.

وفكّرَ: «كم سيكون الأمر سهلًا لو كان في الإمكان ربط الخيط بالقارب، ولكن في وسع السَّمكة أن تقطعه بجرَّةٍ مفاجئةٍ صغيرةٍ منها، يتوجَّب عليَّ أن أجعل من جسدي وسادةً تخفِّف من ضغط الخيط، وأكون مستعدًّا في الأوقات جميعها لإعطاء مزيدٍ من الخيط بكلتا يديّ».

وقال بصوتٍ مسموع:

- «ولكنَّكَ لم تَنَمْ لِحدِّ الآن -أيُّها الشّيخ- فقد انقضى

نصفُ نهارٍ وليلة، والآن مرَّ نهارٌ آخر، وأنتَ لم تَنَمْ، يجب أن تبتكر طريقةً لكي تنامَ قليلًا عندما تكون السَّمكة هادئةً ومطَّردةَ الحركة، وإذا لم تَنَمْ فقد تختلط الأمور في رأسكَ».

وفكّرَ: «إنَّ الأمورَ واضحةٌ بصورةٍ كافيةٍ في رأسي، بل واضحةٌ أكثر من اللّازم، فأنا واضحٌ وضوحَ النُّجوم الّتي هي أخواتي، ومع ذلك يجب أن أنام، فالنُّجوم تنام، والقمر والشَّمس ينامان، وحتّى المحيط ينام -أحيانًا- في أيامٍ محدّدةٍ عندما لا يوجد فيه تيّار، ويسود فيه الهدوء على سطح الماء».

وقال في نفسه: «ولكن تذكَّرْ أن تنام، اجعلْ نفسكَ تفعل ذلك، وابتكرْ طريقةً سهلةً وأكيدةً للخيوط، والآن عُدْ إلى الخلف لتهيِّئ سمكة الدّولفين، إنّه لَخطرٌ كبيرٌ أَن تعرقل سير القارب بتثبيت المجدافَيْن إذا كان عليك أن تنام».

وقال لنفسه: «أستطيعُ الاستمرار دون نوم، ولكن ستكون لذلك خطورةٌ بالغةٌ».

وشرعَ بشَقّ طريقه إلى مؤخَّر القارب وهو يزحف في حذر على يدَيْه وركبتَيْه؛ لئلّا يسبِّب جَرَّةً مفاجئةً للسّمكة، وفكّرَ:

«ربَّما هي نفسها نصف نائمة؛ ولكنَّني لا أريدها أن تستريح، يجب عليها أن تجرَّ القارب حتّى تموت».

وعندما بلغَ مؤخَّر القارب، استدار بحيث تتلقّى يده اليسرى ضغط الخيط الّذي حول كتفَيْه، واستلَّ سكّينه من غمدها بيده اليمنى. كانت النُّجوم متوهِّجةً الآن، فرأى سمكة الدّولفين رؤيةً واضحة فأغمد نصل سكّينه في رأسها، وسحبها من تحت مؤخَّر القارب، ووضع إحدى قدميه على السَّمكة وشقّها بخفّةٍ من بطنها حتّى طرف فكّها الأسفل، ثمّ طرحَ سكّينه جانبًا، وانتزعَ أحشاءَها بيده اليمنى، منظّفًا جوفها، ومتخلِّصًا من خياشيمها، وشعرَ أنَّ كرشها ثقيلٌ ولزجٌ في يديه، فشقّه، ووجد في داخله سمكتَيْن طائرتَيْن، كانتا طازجتَيْن وصلبتَيْن، فطرحهما جنبًا إلى جنب، وألقى بالأحشاء والخياشيم من فوق مؤخَّر القارب، فغاصتِ مُخلِّفة وراءها أثرًا فوسفوريَّ الوهج في الماء، كانت سمكةُ الدّولفين باردةً، وبدا لونها الآن -على ضوء النُّجوم- أبيضَ رماديًّا. وسلخَ الشّيخ جانبًا منها، وقدَمُه اليمنى على رأسها، ثمّ قَلَبَها، وسلخَ الجانب الآخر، وشقَّ كلَّ جانبٍ من الرأس حتّى الّذيل.

ألقى بهيكل السَّمكة العَظميّ في البحر، ونظرَ ليرى ما

إذا كانت ثمّةَ دوّامةٌ في الماء، ولكنْ لم يكُن هناك سوى الضَّوء النّاتج من هبوط النُّفايات البطيء، ثمّ استدار، ووضع السَّمكتَيْن الطّائرتَين بين شريحتَي سمكة الدّولفين، وأعاد سكّينه إلى غمدها؛ وفي تؤدةٍ، أخذ يشقّ طريقه إلى مقدَّم القارب، وهو يحمل السّمكات بيده اليمنى، وظَهرُه مُنْحَنٍ بفعل ثقل الخيط عليه.

وعندما عاد إلى مقدَّم القارب وضع شريحتَي السَّمكة على الخشب والسَّمكتَيْن الطّائرتَيْن بجانبهما، وبعد ذلك، عدَّلَ الخيط على كتفَيْه في موضعٍ جديد، وأمسك به مرَّة أُخرى بيده اليسرى وهو مُستنِدٌ إلى حافّة القارب، ثمّ انحنى على جانب القارب، وغسلَ السَّمكتَيْن الطائرتَيْن في البحر، وهو يلاحظ سرعة الماء على يده، وصار ليده لمعانٌ فوسفوريٌّ من جرّاء سلخه جلد السَّمكة، وراقب جريان الماء على يده، كان الجريان أقلّ قوَّةً، وحكَّ جانبَ يدِهِ بخشب المركب، فتساقطَتْ جُزيئاتٌ فوسفوريّةٌ منها، وطفتْ على الماء فجرفها التّيار ببطءٍ إلى مؤخَّر المركب.

قال الشّيخ:

– «السَّمكةُ إمّا متعبة، وإمّا أنّها تستريح، والآن، يجبُ

عَليَّ أنْ أنتهي من أكل سمكة الدّولفين هذه، وآخذ قسطًا من الرّاحة وقليلًا من النوم».

تحت النُّجوم، واللَّيل يزداد برودة طوال الوقت، أكلَ نصف إحدى شريحتَي سمكة الدّولفين وإحدى السّمكتَيْن الطائرتَيْن بعد أن أفرغَ أحشاءها، وقطعَ رأسها.

وقال:

- «ما أطيبَ أكْلَ سمكة الدّولفين وهي مطبوخة! وما أتعسها من سمكةٍ وهي نيِّئة! سوف لا أُبحِرُ بقاربٍ مرّةً أُخرى أبدًا بلا مِلْحٍ أَوْ ليمونٍ حامض».

وقال في نفسه: «لو كنتُ ذكيًّا لرششْتُ الماء على مُقدَّم القارب، وتركته يجفُّ طَوال اليوم فيتحوَّل إلى ملحٍ، ولكنَّني -في الحقيقة- لم أَصطَدْ سمكةَ الدّولفين إلّا عند غروب الشَّمس تقريبًا، ومع ذلك، فثمّة سوء تدبير، ولكنّي مضغتُها جيّدًا، ولا أشعر بالغثيان».

كانت السّماء تتلبّد بالغيوم من جهة الشَّرق، وراحت النُّجوم الّتي يعرفها تختفي واحدةً تلو الأُخرى، وبدا -الآن- كما لو كان يتحرَّك في وادٍ سحيقٍ من الغيوم، وخفتتِ الرّيح.

قال:

- «سيكون الطَّقس سيِّئًا بعد ثلاثة أو أربعة أيّام، ولكنْ ليس اللَّيلة أوْ غدًا، فَجَهِّز الشّراع الآن لتنال قسطًا من النَّوم -أيُّها الشّيخ- ما دامت السَّمكة هادئةً ومطّردة الحركة».

أمسكَ الخيطَ بيده اليمنى في إحكامٍ، ثمّ استند بفخذه الأيمن على يده اليمنى، واتَّكأَ بكلِّ ثقله على خشب مُقدَّم القارب، ثمّ حوّلَ الخيط قليلًا إلى الأسفل على كتفَيْه، ووضعَ يده اليسرى عليه، وفكّرَ: «تستطيع يدي اليمنى أن تُمسِك بالخيط مادام ملفوفًا حولها، فإذا ارتختْ في أثناء النَّوم فإنَّ يدي اليسرى ستوقظني حالَ ذهاب الخيط بعيدًا، إنَّ الأمر صعبٌ على اليد اليمنى، ولكنَّها اعتادت على تحمُّل المشقّة، وحتّى لو أنام عشرين دقيقة أو نصف ساعة، ففي ذلك فائدة»، وانكفأ إلى الأمام وهو مُتشبِّثٌ بالخيط بجسده كُلّه، وواضعًا ثقله كلّه على اليد اليمنى، ونام.

لم يحلم بالأُسود، ولكنَّه بدلًا من ذلك حلم بمجموعةٍ من أسماك خنزير البحر وهي تنتشر لثمّانية أو عشرة أميال في موسمِ تكاثرها، فكانت تتقافز عاليًا في الهواء، وتعود إلى

الفجوة نفسها الّتي أحدثتها في الماء عندما قفزَتْ منه.

ثمّ حلم بأنَّه في القرية، نائمًا في فراشه، وهبّتْ ريحٌ شماليّةٌ فشعرَ ببردٍ قارس، وقد تخدّرتْ ذراعه اليمنى؛ لأنَّ رأسه اتَّكأ عليها بدلًا من الوسادة.

وبعد ذلك راح يحلم بالشّاطئ الأصفر الطّويل، وبأنّه رأى أوَّل الأُسود ينزل إلى الشّاطئ في مطلع اللّيل، ثمّ تبعته بقيّة الأُسود، وأَنَّه أراح حنكه على خشب مُقدَّم السَّفينة الّتي ألقت بمرساتها مع هبوب نسيم المساء من الشّاطئ، وأنَّه لبث يترقَّب وصول مزيدٍ من الأسود، وكان سعيدًا.

كان القمر قد ارتفع في كبد السَّماء منذ مُدَّة، ولكنَّه ظلَّ نائمًا بينما كانت السَّمكة تواصل الجرّ بانتظام، والقارب يسير في نفق من الغيوم.

أفاقَ على هزَّةٍ مفاجئةٍ من قبضته اليمنى على وجهه وحرقة الخيط في يده اليمنى، لم يكُن يشعر بيده اليسرى، ولكنّه أوقف الخيط بكلِّ ما أوتي من قوّةٍ بيده اليمنى، بَيْدَ أنَّ الخيط انفلتَ خارجًا، وأخيرًا، عثرَتْ يدُه اليسرى على الخيط، فمال هو إلى الخلف مُلقيًا بثقله على الخيط الّذي راح الآن يحزّ

ظهره ويده اليسرى، وقد أخذَتْ يده اليسرى تتحمَّل العِبء كُلّه فانجرحتْ جرحًا سيِّئًا. نظر خلفه إلى لفّات الخيوط، فرآها والخيط ينساب منها بخفّة، وفي تلك اللَّحظة، قفزتِ السَّمكةُ مُحدِثةً انفجارًا هائلًا في المحيط، ثمّ سقوطًا ثقيلًا، ثمّ وثبَتْ مرَّة تلو الأخرى، وانطلق القارب بسرعة على الرَّغم من أن الخيط مازال ينساب إلى الخارج، والشّيخ يزيد من الضّغط على الخيط حتّى يقترب من نقطة الانقطاع مرّةً بعد أُخرى، وجُرَّ الشّيخ إلى الأسفل بقوّة، فسقط على مُقدَّم القارب، وارتطم وجهه بشريحة الدّولفين، ولم يستطع أن يتحرّك.

وفكّرَ: «هذا ما كُنّا ننتظره، وعلينا الآن أن نواجهه».

وقال في نفسه: «اجعل السَّمكةَ تدفع ثمنَ الخيط، اجعلها تدفع ثمنه».

لم يستطِعْ أن يشاهد وثبات السَّمكة، ولكنّه كان فقط يسمع تفجُّر المحيط عند قفزها ورشاش المياه الثّقيل عند سقوطها، كانت سرعة انفلات الخيط تجرح يديه بشدّة، ولكنَّه كان يتوقَّع حدوث ذلك دائمًا، ولهذا حاول أن يجعل الخيط يمرّ عبر الأجزاء الصُّلبة من يديه، وألّا يدعه ينزلق إلى راحة اليد، أو يجرح أصابعه.

وفكّرَ الشّيخ: «لو كان الصَّبيُّ هُنا لبلّل لَفّات الخيط، نَعمْ، لو كان الصَّبيُّ هنا.. لو كان الصَّبيُّ هنا».

وامتدَّ الخيط خارجًا وخارجًا وخارجًا، ولكنَّه أخذ الآن بالتَّباطؤ، وسيجعلُ الشّيخ السَّمكةَ تدفع مقابلًا باهظًا لكلِّ بوصةٍ من الخيط. الآن رفع الشّيخ رأسه من الخشب ومن شريحة الدّولفين الّتي ارتطم بها خدُّه، ثمّ نهض على رُكبتَيْه، ثمّ -على مَهلٍ- قام واقفًا على قدمَيْه، وكان طَوال الوقت يُرخي الخيط، ولكنْ ببطءٍ أكبر، وتراجعَ إلى الخلف حيث يستطيع أن يتحسَّسَ بقدمه لفّات الخيط الّتي لم يكُن في استطاعته أن يراها، كانت لاتزال وفرةٌ من الخيط، وعلى السَّمكة الآن أن تتحمَّل العِبءَ النّاتج من احتكاك كلِّ ذلك الخيط الجديد بالماء.

وفكّرَ: «نعم، الآن بعد أن قَفزتِ السّمكةُ أكثر من اثنتي عشرة مرَّةً، وملأتِ الجيوب المُمتدَّة على طول ظَهرها بالهواء، فإنَّها لا تستطيع الغوص إلى الأسفل لتموت في الأعماق، بحيث يصعب عَليّ رفعها إلى الأعلى، وسرعان ما ستبدأ بالدَّوران، وحينئذٍ ينبغي أن أشتغل عليها، وإنّي أتساءلُ ما الّذي أثارها هكذا إثارة مفاجئة؟ ألا يكون الجوع هو الّذي

جعلها يائسة، أمْ أنَّ شيئًا ما قد أفزعها في اللَّيل؟ لعلَّها شعرَتْ بالخوف فجأة؟ ولكنَّها كانت قبل ذلك سمكةً على قدرٍ من الهدوء والقوَّة، وبدَتْ بالغةَ الثِّقة وبلا خوف، إنَّه أمرٌ غريب».

وقال:

- «من الأفضل أن تكون أنتَ -أيُّها الشّيخ- بلا خوف، وواثقًا بنفسك، فأنتَ لاتزال تُمسِك بها، ولكنَّك لا تستطيع أن تستردَّ الخيط، ولكنَّها سرعان ما ستأخذ في الدَّوران».

أمسك الشّيخ بخيط السَّمكة بيده اليسرى وكتفَيْه الآن، وانحنى ليغرف بيده اليمنى شيئًا من الماء ليُزيل ما علق بوجهه من لحمِ سمكةِ الدّولفين، فقد كان يخشى أن يصيبه بالغثيان فيتقيّأ، ويفقد قوّته، وبعد أن نظّفَ وجهه غسلَ يده اليمنى بالماء من على جانب القارب، ثمّ تركها في الماء المالح وهو يراقب أوَّل خيوط الضّوء القادمة قُبَيل شروق الشَّمس، وفكّرَ: «إنَّ السَّمكة تتَّجه نحو الشَّرق تقريبًا، وذلك يعني أنَّها مُتعبَة، وأنَّها تسير مع التّيّار، وقريبًا سيتحتَّم عليها الدَّوران، وحينئذٍ يبدأ عملنا الحقيقيّ».

وبعد أن قدَّرَ أنَّ يده اليمنى بقيَتْ في الماء مُدّةً كافيةً،

أخرجها، ونظرَ إليها.

وقال:

- «لا بأس بها، والرَّجلُ لا يعبأ بالأَلم».

أَمْسكَ بالخيط بعنايةٍ لكيلا يمسّ أيَّ جرحٍ جديدٍ في يده، وحوّل حمله بحيث يستطيع وضع يده اليسرى في البحر من الجانب الآخر للمركب.

وخاطب يده اليسرى قائلًا:

- «إنَّكِ لم تتحمَّلي ذلك الأَلم من أجل شيءٍ لا قيمة له، ولكنْ كانت هناك لحظة لم أتمكَّن من أن أجدكِ فيها».

وتساءل في نفسه: «لماذا لم أولد بيدَيْن جيِّدتَيْن؟ ربَّما كانت غلطتي؛ لأنَّني لم أُدرِّب تلك اليد بصورةٍ ملائمة، ولكن يعلم الله أنَّها قد أُتيحَت لها فرصٌ كافيةٌ لتتعلَّم، ومع ذلك، فقد كانت لا بأس بها طوال اللَّيل، وأنَّها تشنَّجتْ مرَّةً واحدةً فقط، وإذا تشنَّجتْ مرَّةً أُخرى، فليجرحها الخيط».

وعندما فكَّر في ذلك، أدرك أنَّه لم يكُن صافي الذِّهن، وخطرَ له أنَّه يجب أن يمضغ مزيدًا من لحم الدّولفين، فقال في نفسه: «ولكنَّني لا أستطيع، فَمِنَ الخير لكَ أن تبقى مشوَّش

الذِّهن من أن تفقد قواك بسبب الغثيان، أعرف أنَّني لا أستطيع الاحتفاظ بها في معدتي إذا ما أكلتها بعد أن اندسَّ وجهي فيها؛ لذلك سأحتفظ بها للطَّوارئ، حتّى تفسد، ولكن فاتني الوقت -الآن- لمحاولة التّقوّي بالغذاء»، وقال لنفسه: «إنّكَ غَبيٌّ، كُلِ السَّمكةَ الطّائرة الأُخرى».

وكانت السَّمكة الطّائرة هناك نظيفةً وجاهزةً، فتناولها بيده اليسرى، وأكلها ماضغًا العظام بعنايةٍ، وأتى عليها كلِّها إلى ذيلها.

وفكَّرَ: «إنَّ فيها من الغذاء أكثر من أيّةِ سمكةٍ أُخرى تقريبًا، على الأقل ذلك النَّوع من القوّة الّتي أنا في حاجةٍ إليها، والآن، وبعد أن فعلتُ ما أَستطيع، لتبدأ السَّمكة بالدّوران، ولتأتي المعركة.

كانت الشَّمس تُشرِق للمرَّة الثّالثة منذ أن نزل إلى البحر، عندما شرعتِ السَّمكة في الدّوران.

لم يكُن في وسعه أن يرى من خلال مَيلان الخيط ما إذا كانت السَّمكة تدور، فذلك سابق لأوانه، أحسَّ فقط بارتخاءٍ خفيف في ضغط الخيط، فراحَ يسحبه في رفقٍ بيده اليمنى،

توتَّرَ الخيط، كما كان دائمًا، ولكنَّه عندما بلغ النُّقطة الّتي قد ينقطع فيها، أخذ في التَّراخي، مَرَّرَ الشّيخ رأسَه وكتفَيه من تحت الخيط، وشرع في سحب الخيط بثباتٍ ولطف، واستخدمَ كلتا يديه في حركةٍ متأرجحة، وحاولَ أن يقوم بعمليةِ السَّحب بجسمه وساقيه أكثر ما يمكنه، فدارت ساقاه الهرمتان وكتفاه الباليتان مع حركة السَّحب المتأرجحة.

وقال:

– «إنَّها دورة كبيرة جدًّا، ولكنَّ السَّمكة تدور».

ثمّ لم يَعُد الخيط ينسحب أكثر، فأمسكَ به الشّيخ حتّى رأى الماء يتقاطر منه على ضوء الشَّمس، ثمّ أخذ الخيط في الانفلات خارجًا، فانحنى الشّيخ، وتركه يعود غائصًا في المياه المُظلِمة.

وقال:

– «إنَّها تقوم بدورتها البعيدة الآن».

وفكّرَ: «عَليَّ أن أُمسِكَ بكلِّ ما أستطيعه من الخيط، فالإجهاد سيقصِّر دورتها في كلِّ مرَّة، ولَعلّي أتمكّن من رؤيتها في ظرف ساعة، الآن ينبغي عَليَّ أن أروِّضها، ثمّ يجب

عَليَّ أن أقتلها».

ولكنَّ السَّمكة داومت على الدَّوران ببطءٍ، وبعد ساعتين ابتلَّ جسد الشّيخ من العَرق، وتسرَّبَ الإعياءُ إلى نخاع عظامه، بَيْدَ أنَّ دورات السَّمكة غدتْ الآن أقصر، ومن الطَّريقة الّتي ارتخى بها الخيط، كان في وسعه أن يعرف أنَّ السَّمكة راحتْ تصعد باطّرادٍ فيما هي تسبح.

وطَوال ساعةٍ من الزَّمن، صار الشّيخ يرى بُقعًا سوداء أمام ناظريه، وراح العَرَق يملِّح عينَيْه، ويحرق الجرح الّذي تحتهما، والجرح الّذي على جبهته. لم يكُن خائفًا من البُقع السَّوداء، فقد كان ظهور تلك البُقع اعتياديًّا عند بذل الجهد في سحب الخيط، ومع ذلك فقد شعر مرَّتَيْن بالإغماء والدوار، وذلك ما أَقْلقه.

وقال:

- «لا يمكنني أن أخذل نفسي وأموت من أجل سمكةٍ كهذه، الآن، وقد أتيتُ بها بهذه الصّورة الرائعة، ليساعدني الله على الاحتمال».

في تلك اللّحظة، أحسَّ بخبطٍ وسَحبٍ مُفاجئ للخيط

الّذي كان يُمسِكه بكلتا يدَيْه، وفكّرَ: «إنَّها تضرب مُقدَّم السِّلك برُمحها، كان ذلك سيحصل حتمًا، وكان عليها أن تفعل ذلك، وقد يجعلها ذلك تقفز، مع أنّي أُفضّل أن تبقى الآن في دورانها، فالقفزات ضروريّةٌ لها لكي تستنشق الهواء، ولكن بعد ذلك فإنَّ كلَّ قفزةٍ يمكن أن توسّع الجرح الّذي أحدثه الشِّصّ بحيث تستطيع أن تلفظه».

وقال:

- «لا تقفزي -أَيَّتها السَّمكة- لا تقفزي».

ضربتِ السَّمكةُ سلك الصِّنّارة عدّة مرّات أُخرى؛ وفي كلِّ مرَّة كانت تهزُّ رأسها، فأرخى الشّيخ قليلًا من الخيط.

وفكّرَ: «يجب عليَّ أن أوقِف أَلَمَها حيث هو، أمّا أَلَمي فلا يهمّ، إذْ أستطيع التَّحكُّم فيه، ولكنّ أَلَمها قد يدفعها إلى الجنون».

وبعد برهة توقّفت السَّمكة عن ضرب سلك الصِّنّارة، وشرعت في الدَّوران في بطءٍ مرَّةً أُخرى، وراح الشّيخ يجذب الخيط باطِّرادٍ الآن، ولكنَّه شعر بالدّوار ثانيةً، فرفعَ شيئًا من ماء البحر بيده اليسرى وصبَّه على رأسه، ثمّ وضعَ مقدارًا آخر

من الماء على قَفا رقبته ودلكها.

وقال:

- «ليست لديّ تشنُّجات، وستصعد السَّمكة عمّا قريب، وفي استطاعتي الاستمرار، عليكَ أن تستمرَّ، ولا تتكلَّم أبدًا عن ذلك».

انحنى مُسْتَنِدًا إلى مُقدَّم القارب، ولبرهةٍ حوَّلَ الخيط على ظهره كَرّةً أُخرى. سأستريح الآن فيما تقوم السَّمكة بالدوران، ثمّ سأنهض، وأشتغل عليها عندما تظهر، هكذا قرَّر.

كان الإغراء عظيمًا بأن يبقى مُستريحًا في مُقدَّم القارب، وأن يدع السَّمكة تقوم بدورةٍ واحدةٍ بنفسها دون أن يستعيد أيَّ شيءٍ من الخيط، ولكنْ عندما أظهر ضغط الخيط استدارت السَّمكة لتأتي في اتِّجاه القارب، نهض الشّيخ مُنتصِبًا على قدميه، وشرع في الدَّوران وحركات الجذب الّتي استعادتْ جميع ما كسبه من الخيط.

وفكّرَ: «إنَّني أُحسُّ بتعبٍ أشدّ من أيِّ وقتٍ مضى، الآن أخذتِ الرّيح في الهبوب، ولكنَّ هذا سيكون أمرًا جَيِّدًا، إذ ستدفع الرّيحُ السَّمكةَ معها إليّ، وأنا في أمسِّ الحاجة إلى

ذلك».

وقال:

- «سأستريح خلال الدَّورة القادمة لها، فها هي تبتعد، وأنا أَشعر أنَّني أَفْضل حالًا، وبعد دورتَيْن أو ثلاث، سأتمكَّن منها».

كانت قُبَّعة الشّيخ المصنوعة من الخوص قد ابتعدتْ إلى مؤخَّر رأسه، واستقرَّ هو في مُقدَّم القارب مع سحب الخيط عنما أحسَّ بدوران السّمكة.

وفكّرَ في نفسه: «اشتغلي الآن، أيَّتها السَّمكة، سآخذك حين تستديرين».

ارتفع البحر بصورة بالغة، ولكنَّ ذلك كان بفعل نسيمِ طَقسٍ معتدلٍ كان لابُدَّ له منه لكي يعود إلى منزله.

وقال:

- «سأتَّجه بالقارب إلى الجنوب والغرب، لا يتيه الإنسان في البحر أبدًا، وهي جزيرةٌ طويلة».

وعند الدَّورة الثّالثة رأى السَّمكة لأوَّل مرَّة، رآها كَظِلٍ غامقٍ استغرق مروره تحت القارب وقتًا طويلًا، لدرجة أنَّه لم

يُصدّق طولها.

وقال:

- «لا، لا يمكن أن تكون كبيرة بهذا القدْر».

ولكنَّ السَّمكة كانت بذلك الحجم، وفي نهاية هذه الدَّورة طَفتِ السَّمكة على سطح الماء على بُعد ثلاثين ياردة فقط، فأبصر الشّيخ بذيلها خارجًا من الماء، كان الّذيل أعلى من نَصلِ مِنْجَلٍ كبيرٍ، ولونه بلون الخُزامى الشّاحب جدًّا فوق الماء الدّاكن الزُّرقة.

ثمّ هبط الّذيل، وفيما كانت السَّمكة تسبح تحت سطح الماء مباشرة، استطاع الشّيخ أن يرى جسدَها الضَّخم والخطوط الأرجوانيّة الّتي تحيط به، وكانت زعنفتها الظَّهريّة مُنحنيةً إلى الأسفل، وأمّا زعنفتها الصّدريّة الضَّخمة فقد كانت منشورةً باتّساع.

في هذه الدّورة استطاع الشّيخ أن يرى عين السَّمكة، والسَّمكتَيْن المصّاصتَيْن الرَّماديتَيْن اللَّتَنْ كانتا تسبحان حولها، كانتا تلتصقان بها أحيانًا.. وأحيانًا تبتعدان عنها، وفي بعض الأحيان تسبحان بأمانٍ في ظلِّها، وكان طول كلِّ واحدة

منهما يزيد على ثلاثة أقدام، وفي أثناء سباحتهما السَّريعة، كانتا تندفعان بكامل جسديهما مثل ثعابين الماء.

كان الشّيخ يَتصبَّب عَرقًا الآن، ولكنْ بسبب شَيءٍ آخر غير الشَّمس، وعند كلِّ دورة هادئة مسالمة تقوم بها السَّمكة كان الشّيخ يستردّ مقدارًا من الخيط، وصار مُتيقِّنًا من أنَّه بعد دورتَيْن ستُتاح له الفرصة لطعنها بالحربة.

وفكّرَ في نفسه: «ولكنْ يجب أن أجعلَها تقتربُ، وتقترب، وتقترب، ويجب ألّا أحاول استهدافَ الرَّأس، بل يجب أن أُصيب القلب».

وقال:

– «كُن هادئًا وقويًّا، أيُّها الشّيخ».

وفي الدَّورة التّالية، برز ظهر السَّمكة، ولكنَّها مازالت بعيدة شيئًا ما عن القارب، وفي الدّورة الّتي تبعتها، كانت ماتزال بعيدة، ولكنَّها أضحت أكثرَ ارتفاعًا خارج الماء، وتأكَّد للشَّيخ أنَّه إذا ما استعاد مقدارًا أكبر من الخيط، فإنَّه سيجعل السَّمكة بمحاذاة القارب.

كان قد أعدَّ الحربة منذ مدَّةٍ طويلة، وكانت لفَّة حبلها

الخفيف في سلّةٍ مدوَّرة، وعُقِدتْ نهاية الحبل بالوتد القائم في مُقدَّم القارب.

كانت السَّمكة تقترب في دورتها الآن وهي جميلةُ المنظرِ وهادئةٌ ماعدا ذيلها الكبير الّذي كان يتحرَّك، فسحبها الشّيخ بأقصى ما يستطيع ليجعلها أقرب، فاستدارت السَّمكة قليلًا على جنبها لحظةً واحدةً فقط، ثمّ استقامتْ، وشرعتْ باستدارةٍ أُخرى.

قال الشّيخ:

- «لقد حرّكتُها، لقد حرّكتُها إذن».

وشعر بالدَّوار مرَّةً أُخرى، ولكنَّه استمرَّ بالضَّغط على السَّمكة العظيمة بكلِّ استطاعته، وفكّرَ: «إنَّني حرَّكتُها، ربَّما هذه المرَّة سأتمكّن منها»، وفكَّر في نفسه قائلًا: اسحبا يا يَديَّ، واثبتا يا ساقَيَّ، وابقَ معي يا رأسي، ابقَ معي، فأنتَ لم تتركْني قطّ، هذه المرَّة سأسحبها إليَّ.

ولكنّه عندما استجمع جهده كلَّه، وشرع -قبل أن تقترب السَّمكة من جانب القارب- بجرِّها بكلِّ قوّته، اندفعتِ السَّمكة مُقلِبةً، ثمّ استقامتْ، وسبحَتْ مبتعدةً عنه.

قال الشّيخ:

- «أيَّتها السَّمكة، إنَّكِ ستموتين على أيَّة حال، فهل عليكِ أن تقتليني أيضًا»؟

وفكّرَ: «بهذه الطّريقة لا يُنجَزُ شَيءٌ».

كان فمه جافًّا جدًّا، بحيث لم يكُن بإمكانه التّكلُّم، ولكنَّه لم يستطع الوصول إلى الماء الآن، وفكَّرَ: «يجب أن أجلبها إلى جانب القارب هذه المرَّة، فأنا لستُ قادرًا على احتمالِ دوراتٍ عديدةٍ أُخرى»، ثمّ ناجى نفسه قائلًا: «نعم أنتَ قادر على ذلك، إنَّكَ صالحٌ إلى الأبد».

وفي الدَّورة التّالية، كاد الشّيخ يظفر بالسَّمكة، ولكنَّها -مرَّةً أُخرى- قوّمتْ نفسها، وسبحتْ مبتعدةً ببطء.

قال الشّيخ في نفسه: «إنَّكِ تقتلينني أيَّتها السَّمكة، ولكنْ لَكِ الحَقّ في ذلك، فأنا لم أرَ أبدًا سمكةً أَعظمَ، أو أَجملَ، أو أهدأً، أو أكثر نُبلًا منك، أيَّتها الأُخت، تعالي اقتليني، فلستُ أبالي مَنْ يقتل مَنْ».

وقال في نفسه: «الآن صار رأسُكَ مُشوَّشًا، يجب عليكَ أن تحتفظ برأسكَ صافيًا، احتفظْ برأسكَ صافيًا، وتعلَّمْ كيف

تحتمل الألم كرجل أو كسمكة».

وقال بصوتٍ كان من الصَّعب عليه سماعه:

- «كُنْ صافيًا يا رأسي.. اصْفُ».

وتكرَّر الأمر مرَّتَيْن عند دوران السَّمكة.

وقال الشّيخ في نفسه: «لا أدري»، وكان على وشك أن يُحِسّ بالإغماء في كُلِّ مَرَّة، «لا أدري، ولكن سأحاول مرَّةً أُخرى».

وأعاد المحاولة، فشعر بالدَّوار عندما قَلَبَ السَّمكة، واستقامتِ السَّمكة وسبحَتْ ببطءٍ مبتعدةً كَرَّةً أُخرى، وذيلها الضَّخم يرفرف في الهواء.

سأحاول مرَّةً أخرى، هكذا عاهد الشّيخ نفسه، على الرغم من أن يدَيْه غدتا واهِنتَيْن، ولم تَعُد في مقدوره الرّؤية جيّدًا إلّا في ومضات.

وحاول مرَّةً أُخرى، فكانت كسابقاتها، وعزم على إعادة الكَرَّة، وهو يُحِسُّ بأنَّه سينهار قبل أن يبدأ المحاولة.

استجمعَ كلَّ ألَمه وما تبقّى من قوّته وعزّة نفسه الّتي

تلاشَتْ منذ أَمَدٍ طويل، وحشدَ كلَّ ذلك في مجابهة معاناة السَّمكة، فتحوّلت السَّمكة إلى جانبه، وسبحتْ برفقٍ في محاذاته، وكاد أنفها يلامس خشب المركب، وأخذَتْ تمرُّ بالقارب طويلةً، وسميكةً، وعريضةً، وفضيّةً، تُزيّنها خطوطٌ أرجوانيّةٌ لا مُتناهيةٌ في الماء.

ألقى الشّيخ بالخيط، ووضع قدمه عليه، ورفع الحربة إلى أعلى ما يستطيع، وبكلِّ قوّته، وبقوّةٍ إضافيّة استجمعها في تلك اللَّحظة غرز الحربة في جنب السَّمكة تمامًا خلف الزَّعنفة الصَّدريّة الكبيرة الّتي كانت ترتفع عاليًا في الهواء إلى مستوى صدر الشّيخ، فأحسّ بحديد الحربة ينغرز في السَّمكة، فانحنى فوقه، ودفعه أبعدَ، واضعًا كلَّ ثقله عليه.

بَيدَ أنّ السَّمكة خرجتْ حيّة، وهي تحمل موتها في ذاتها، وارتفعتْ عاليًا خارج الماء، عارضةً كلَّ طولها وعَرْضها العظيمَيْن وجميعَ بأسها وجمالها، وبدَتْ معلَّقةً في الهواء فوق الشّيخ في المركب، ثمّ سقطتْ في الماء بارتطامٍ أطلقَ رشّاشًا من الماء على الشّيخ وعلى المركب بأكمله.

أسئلةُ الفصلِ السّادسِ

1. «وبزغتْ طلائع النُّجوم، ولم يكُن يَعرف اسم النَّجم (رجل الجَبّار)، ولكنَّه رآه، فعلِم أنّ النُّجوم الأُخرى كُلّها سرعان ما ستبزغ، وسينتشر حوله أصدقاؤه البعيدون جميعهم وَشيكًا في أجواز السّماء».
ما المقصودُ بقولِهِ: «أصدقاؤه البعيدون جميعهم»؟

2. ابحث في الشّبكةِ المعلوماتيّةِ عن النّجم (رجل الجَبّار)، وعن اسم آخر له، وعن سبب تسميته بهذا الاسم، واقرأ ما كتبْتَهُ إلى مُعَلِّمِكَ وَزُملائِكَ.

3. قالَ الشّيخُ: «الآن سأستريحُ ساعةً إضافيّة، وعندما أشعر بأنَّ السَّمكة ماتزال قويّةً ومطَّردةَ الحركة سأعود إلى مؤخَّر القارب». ما السّببُ الّذي يدفعُهُ للعودةِ إلى مؤخّر القاربِ؟

4. عَلِّلْ سببَ قولِ الشّيخِ: «لو كنتُ ذكيًّا لرششْتُ الماء على مُقدَّم القارب، وتركته يجفُّ طَوال اليوم».

5. بِتَقديرِكَ، لماذا قالَ الشّيخُ مُخاطِبًا نفسَهُ: «الآن صار رأسُكَ مُشوَّشًا، يجب عليكَ أن تحتفظ برأسكَ صافيًا،

احتفظْ برأسِكَ صافيًا، وتعلَّمْ كيف تحتمل الألم كرجلٍ أو كسمكةٍ»؟ وما الشّعور الذي كان مسيطرًا عليه حين قال ذلك في اعتقادك؟

6. صِفْ مشاعِرَكَ وأنت تختمُ هذا الفصلَ وقد نجح الشّيخُ في أن يقضي على السّمكة بعد رحلةٍ طويلةٍ من العذاب والأَلَمِ.

7. بدأت رحلةُ الصّيدِ المُنهِكةُ في هذا الفَصلِ تأخذ نفسها نحو النّهايةِ، ولذلكَ كانت تسبرُ لحظاتِ الضَّعفِ والمُقاومَةِ البطوليّةِ الّتي أظهرَها الشّيخُ، فمع كلّ انحدارٍ في قواه البدنيّةِ يَتجلّى لنا عُلوٌّ في الهمّةِ والتّصبّر. ارصُدْ الجُملَ والعِباراتِ الّتي قالَها الشّيخُ لنفسِهِ في هذا الفصلِ، واكتُبها في قائمةٍ، وناقِشْ مع زُملائِكَ ومُعلِّمِكَ كيفَ استطاعَتْ هذِهِ العِباراتُ أنْ تُغذّي هِمّةَ الشَّيخِ وصمودَهُ.

الفصلُ السّابعُ

شعرَ الشّيخ بالدَّوار والغثيان ولم يعُد قادرًا على الرُّؤية جيِّدًا، ولكنَّه أرخى خيط الحربة، وتركه يمرّ من بين يديه الخشنتَيْن، وعندما عاوَدَتْهُ القُدرةُ على الإبصارِ رأى السَّمكة طافيةً على ظهرها وبطنها الفضّيّ إلى الأعلى، وكانت قصبة الحربة تشكِّل زاويةً مع كتف السَّمكة، والبحر قد اصطبغ بلون الدَّم الأحمر من قلب السَّمكة.

في البداية كانت تلك البقعة داكنةً مثل لون المياه الضَّحلة في ذلك البحر الأزرق الّذي يزيد عمقُهُ على ميلٍ، ثُمّ انتشرت انتشار السّحابِ، وكانت السَّمكة فضيّةَ اللَّون وساكنةً وطافيةً فوق الأمواج.

حملقَ الشّيخ ببصيص الرُّؤية المتبقّية لدَيه، ثمّ قام بلفِّ خيط الحربة مرَّتَين على الوتد في مُقدَّم القارب، ووضع رأسه على يدَيْه.

وقال وهو مستندٌ إلى خشب مُقدَّم القارب:

– «يجب أن أحتفظ برأسي صافيًا، إنَّني شيخٌ مُتعَب، ولكنَّني قتلتُ هذه السَّمكة الّتي هي أُختي، والآن يجب

أن أقوم بالعمل الشّاقّ».

وفكَّرَ: «الآن يجب أن أُهيّئَ الأُنشوطات والحبل لكي أربطها إلى جانب المركب، وحتّى لو كنا اثنَين، وأفرغنا القارب من الماء لتحميل السَّمكة، فإنَّ هذا القارب لن يتحمَّلها أبدًا، يجب أن أُحضِّر كلَّ شيءٍ، ثمّ أسحب السَّمكة، وأربطها بإحكام، وأرفع السّاري، وأُبحِر عائدًا إلى المنزل».

بدأَ بجرِّ السَّمكة إليه لتكون بجانب القارب، بحيث يتمكَّن من تمرير الخيط في خياشيمها، ويُخرِجه من فمها، ويربط رأسها إلى مُقدَّم القارب. وقال في نفسه: «أريد أن أراها، وألمسها، وأحسّ بها، إنّها ثروتي، ولكنْ ليس لهذا أرغب في جسّها، أظنّ أنَّني أحسستُ بقلبها عندما غرزتُ نصل الحربة فيه المرَّة الثّانية، اسحَبْها الآن، وثبّتْها، وضعِ الأُنشوطة حول ذَنَبها، وأُنشوطة أُخرى حول وسطها لتشدَّها إلى المركب».

وقال: «هيّا إلى العمل أيُّها الشّيخ».

تناولَ شربةً صغيرةً من الماء، ثمّ أضاف:

– «هناك كثيرٌ من العمل الشّاقِّ ينبغي القيام به الآن بعد أَن انتهتِ المعركة».

رفعَ بصره إلى السَّماء، ثمّ ألقى نظرة على سمكته، وحدّقَ في الشَّمس بعناية، وقال في نفسه: «لم يتجاوز الوقتُ الظهر، وستهبُّ الرّيح التِّجاريَّة، والخيوط جميعها لا تعني شيئًا الآن، وسأقوم أنا والصَّبيّ بجدلها بعد العودة إلى المنزل».

قال:

- «تعالي أيّتُها السَّمكة».

ولكنَّ السَّمكة لم تأتِ، بلْ، بدلًا من ذلك، مكثَتْ هناك منغمسةً في ماء البحر، فوجَّهَ الشّيخ القاربَ نحوها.

وعندما بلغ السَّمكة، وجعل رأسها عند مُقدَّم القارب، لم يستطع تصديق حجمها، بَيْدَ أَنّه فكَّ حبل الحربة من الوتد، ومرَّره من خياشيم السَّمكة، وأخرجَهُ من بين فكَّيها، ولفّه حول سيفها، ثمّ مرَّر الحبل في الخيشوم الآخر، ولفّ لفّةً أُخرى حول أنفها، وعقدَ طرفَي الحبل، وربطه بالوتد في مُقدَّم القارب، وعندئذٍ قطع الحبل، وذهب إلى مؤخَّر القارب ليربط ذيل السَّمكة.

استحالَ لونُ السَّمكة إلى لونٍ فضّيّ خالص بعد أن كان لونها الأصليُّ مزيجًا من الأرجوانيّ والفضّيّ، وانكشفَتْ خطوطُها

عن لونٍ بنفسجيٍّ شاحبٍ مثل ذيلها، وكانت الخطوط أعرض من كفِّ رجُلٍ وأصابعُه منفرجة، وبدَتْ عَينُ السَّمكة شاخصةً مثل مرايا منظارٍ بحريٍّ.

قال الشّيخ:

- «كانت هذه الطَّريقة الوحيدة لقتلها».

وشعرَ بتحسُّنٍ منذ أنْ شرب الماء، وأدركَ أنَّه لن يُغمى عليه، وأنَّ رأسه عاد صافيًا، وفكَّرَ: «إنَّها تَزِنُ أكثر من ألفٍ وخمسمائةِ رطلٍ كما هي عليه، وربَّما أكثر بكثير، فكم سيكون ثمّنها إذا استُخلِصَ منها ثُلثا ذلك الوزن بسعر ثلاثين سنتًا للرَّطل الواحد؟

وقال:

- «أَحتاجُ إلى قَلمٍ لذلك، فرأسي ليس صافيًا كما ينبغي، ولكن أظنّ أن (ديماجيو) سيكون فخورًا بي هذا اليومَ، لم أُصَبْ بنتوءِ العظم، ولكنّ ظَهري ويدَيّ تؤلمني حقًّا».

وفكَّر: «أتساءل ما هو نتوء العظم؟ رُبَّما نُصاب به دون أن نُدرِك ذلك..».

شدَّ السَّمكة إلى مقدَّم القارب ومؤخَّره، والمقعد الأوسط فيه... كانت السَّمكة كبيرة جدًّا، كما لو أنَّه ربط إلى مركبه مركبًا أكبر منه بكثير، قطع طرفًا من الخيط، وربط فكّ السَّمكة الأسفل إلى خشمها؛ لكيلا ينفتح فمها فلا يكون بإمكانهما الإبحار جيّدًا، ثمّ أقام الصّاريّ، وبمساعدة العصا الّتي يستخدمها بمثابة خطّاف نشر الشِّراع المرقَّع، فبدأ القارب بالتّحرُّك، وأبحر الشّيخ -وهو نصف مضطجع في مؤخَّر القارب- نحو الجنوب الغربيّ، ولم يكُن في حاجة إلى بوصلة لتدلَّه على الجنوب الغربيّ، فقد كان يحتاج فقط أن يستشعر الرّيح وخفقة الشِّراع.

وقال في نفسه: «من الأفضل أن أرمي خيطًا صغيرًا ومعه شِصّ، وأحاول أن أحصل على شيء لآكله، وأرتوي بنداوته»، ولكنَّه لم يستطع العثورَ على شِصّ، وسرديناته غدَتْ متعفِّنة، ولهذا التقط بالخطّاف حزمةً من عشب الخليج الأصفر عند مرورها، ثمّ نفضها لكي تتساقط أسماك الرّوبيان الصَّغيرة العالقة بها على أرضيّة المركب. كان هناك أكثر من دزينةٍ من تلك الأسماك، فأخذت تتقافز، وترفس مثل براغيث الرمل. قطعَ الشّيخ رؤوسها بإبهامه وسبّابته، وأكلها، ومضغها حتّى

أذنابها وأصدافها. كانت ضئيلةً جدًّا، ولكنَّه كان يعلم أنَّها مغذّيّةً وطعمها طيِّب.

مازالت للشّيخ شربتان من الماء في القنّينة، فاستهلكَ نصفَ شربةٍ بعد أن أكل الرّوبيان، وكان المركب مُبحِرًا بصورة جيّدة، إذا أخذنا المُعوِّقات في النَّظر، وقاد الشّيخ المركبَ والدّفة تحت ذراعه، وكان في إمكانه رؤية السَّمكة، ويكفيه أن ينظر إلى يديه، ويحسّ بظهره على مؤخَّر القارب؛ ليُدرك أنَّ ما حدث كان حقيقةً، ولم يكُن حُلمًا، فعندما كان يشعر بالتَّعب قبيل النّهاية، خُيِّلَ إليه أنَّ الأمر ربّما مجرَّد حُلم، ثمّ بعد أن رأى السَّمكة تخرج من الماء، وتقفز إلى السَّماء، وتبقى معلَّقة بلا حراك في الهواء قبل أن تسقط، تأكَّدَ له ثمّة شيء غريب عظيم، ولم يستطع تصديقه، وبعد ذلك لم يتمكَّن من الرِّؤية بوضوح، على الرَّغم من أنَّه -الآن- يرى جيّدًا كما كان يرى دائمًا.

الآن أدركَ أنَّ السَّمكة ويديه وظهره لم تكُن أحلامًا، وفكّرَ: «إنَّ اليدَين ستُشفيان بسرعة، لقد أدميتهما تمامًا، والماء المالح سوف يبْرَؤُهما. إنَّ المياه القاتمة في الخليج الحقيقيّ هي أعظم بَلْسَمٍ في الوجود، كلُّ ما يجب عَليَّ أن أفعله هو

أن أحتفظ برأسي صافيًا، فاليدان أتمَّتا عملهما، ونحن نُبحِر بشكلٍ جيّد، فأنا والسَّمكة، بِفمها المُطبَق وذيلها المنتصب عاليًا، نُبحِر هابطَيْن معًا مثل أخوَيْن».

ثمّ أخذ رأسه يتشوَّش قليلًا، فراح يتساءل: «هل السَّمكة هي الّتي تقودني أم أنا الّذي أقودها؟ لو كنتُ أسحبُ السَّمكة خلفي لما كان ثمّةَ تساؤل، ولو كانت السَّمكة داخل المركب وقد تلاشت كلّ هيبتها لما كان هناك سؤالٌ أيضًا، ولكنّهما يُبحران معًا مشدودَيْن جنبًا إلى جنب».

وقال الشّيخ في نفسه: «دعِ السّمكة تقودُني، إذا كان ذلك يسرّها، فأنا لستُ أفضل منها إلّا بالحيَل فقط، وهي لم تُضمِر لي سوءًا».

أبحرا بصورةٍ جيّدة، ونقَعَ الشّيخ يديه في ماءِ البحر المالح، وحاول أن يحتفظ برأسه صافيًا. كانت فوقهم أعمدةٌ عاليةٌ من الغيوم، وكثيرٌ من السَّحاب الرَّقيق؛ ولهذا أدركَ الشّيخ أنَّ هبوب النَّسيم سيستمرُّ طوال اللَّيل، وكان ينظر إلى السَّمكة باستمرار؛ لكي يتأكَّد من أنّ الأمر حقيقيّ، ومضَتْ ساعةٌ قبل أن يهاجمه القرش الأوَّل.

لم يكُن ذلك القرش مصادفة، لقد جاء من أعماق المياه السَّحيقة بعد أن تشكّلتْ سحابة الدَّم الدّاكنة، وانتشرتْ في مياه البحر الّتي يبلغ عمقها ميلًا، فجاء القرش إلى الأعلى بسرعة بالغة دون أيِّ احتراسٍ مطلقًا حتّى شقَّ سطحَ الماءِ الأزرقَ وظهرَ في الشَّمس، ثمّ غاص عائدًا إلى البحر، والتقط الرّائحة فراح يسبح في مجرى القارب والسَّمكة.

كان القرش يفقد أثر الرّائحة، ولكنَّه سرعان ما يلتقطها، فيسبح في المجرى بسرعة وبقوَّة، كان قرشًا كبيرًا جدًّا من نوع (ماكاو)، تساعده بنيته على السِّباحة بسرعةٍ تضاهي أسرع سمكةٍ في البحر، وكلُّ شيءٍ فيه جميلٌ ماعدا فَكّيه، وكان ظَهره أزرق مثل ظهرِ سمكةِ السَّيف، وبطنه فضّيًّا، وجلده ناعمًا وجميلًا. كانت بنيته شبيهة بسمكة السَّيف ماعدا فكّيه الضّخمَيْن اللّذين كانا مطبقَيْن بإحكام -الآن- فيما كان يسبح بسرعةٍ تحت سطح الماء مباشرة، وزعنفته الظَّهرية العالية تشقُّ الماء مثل سكّين دون أن تهتزّ، وفي داخل ثنايا فكّيه المطبقين كانت هنالك ثمّانية صفوف من أنيابه المائلة إلى الدّاخل، لم تكُنْ أنيابه مثل الأسنان العاديّة الهرميّة الشَّكل لدى معظم الأقراش؛ وإنَّما كان شكلها أشبه بأصابع إنسان عندما تكون

متصلِّبةً مثل مخالب، وطولها يقارب طول أصابع الشّيخ، وفي كلا الجانبَيْن لها حافّتان قاطعتان مثل شفرةٍ حادَّة. كان هذا القرشُ سمكةً بُنيتْ للتّغذّي على جميع أنواع الأسماك في البحر ذات السُّرعة الفائقة والقوة الخارقة اللّتين لا تتركان لها عدوًا غيره، والآن زاد هذا القرش من سرعته بعد أن شمَّ الرّائحة الطّازجة، وراحت زعنفته الظَّهرية تشقُّ الماء.

عندما أبصرَ الشّيخُ بالقِرش قادمًا، وأَدركَ أنَّه قِرشٌ لا يتملَّكُه الخوفُ على الإطلاقِ، ويفعلُ ما يرغبُ فيه بالضَّبطِ، فحضَّرَ الشّيخ حربته، وربط الحبل بها فيما كان يراقب القرش وهو قادمٌ نحوه، وكان الحبل قصيرًا إذْ كان ينقصه ما اقتطعه منه ليربط السَّمكة بالقارب.

كان الشّيخ صاحيَ الرّأس ونشيطًا، وكلّه عزم، ولكنْ لم يكُن لديه كبير أمل، ففكّرَ في نفسه: «إنَّ الأمر ممتازٌ جدًّا، ولكنّه لا يمكن أن يدوم على هذه الحال»، فألقى نظرة أخيرة على السَّمكة العظيمة، فيما كان يراقب القرش وهو يقترب، وفكّرَ: «من المُمكن أن يكون هذا مجرَّد حُلْم كذلك، ليس بمقدوري أن أمنع هذا القرش من مهاجمتي، ولكن قد أتمكّن من القضاء عليه». وأضاف في نفسه: «يا أبا الأسنان، حَظًّا

سيّئًا لك».

اقتربَ القرش بسرعةٍ من مؤخَّر القارب، وحينما هجم على السَّمكة، رأى الشّيخ فمَه المفتوح، وعينَيْه الغريبتَيْن، وأسنانه المصطكَّة وهي تنهش اللَّحم الّذي يلي ذيل السَّمكة مباشرة. كان رأس القرش خارجًا من الماء، وظَهره يرتفع، وكان في ميسور الشّيخ أن يسمع صوت تقطيع جلد السَّمكة الكبيرة ولحمها، عندما غرز الحربة في رأس القرش في بقعةٍ حيث يلتقي الخطُّ الممتدّ بين عينَيه مع الخطِّ الصّاعد مباشرة من أنفه، لم يكُن ثمّة مثل هذين الخطَّيْن، فهناك فقط رأسه الأزرق االصّارم الثَّقيل، وعيناه الكبيرتان، وفكاه المصطكّان البارزان المفترسان لكلِّ شيء، ولكنْ كان هنالك موضع المخِّ، فطعنه الشّيخ، طعنة بيديه الدّاميتَيْن وهو يغرز الحربة جيِّدًا بكلِّ قوّته، لقد طعنه بلا أمل، ولكن بعزمٍ، وبحقدٍ تامٍّ.

انقلب القرش ورأى الشّيخ عينه بلا حياة، ثمّ انقلب مرَّةً أُخرى لافًّا نفسه بالحبل لفَّتَيْن، وعرف الشّيخ أنَّ القرش ميِّت، ولكنَّ القرش لنْ يقبل ذلك، فقد أَخذ -وهو على ظهره- يحرث الماء، ويثيره بذيله الضّارب وفكّيه المطقطقَيْن، مثلما يفعل زورقُ سباق، كان الماءُ أبيضَ مُزبِدًا حيث كان يضرب

بذيله، وثلاثة أرباع جسده ظاهرًا بوضوح فوق الماء عندما توتَّر الحبلُ، ثمّ ارتعشَ، ثمّ انقطع. وانبطحَ القرش وهلةً قصيرة على سطح الماء والشّيخ يرقبه، ثمّ غاص إلى الأعماق في بطءٍ بالغ.

قال الشّيخ بصوتٍ عالٍ:

– «لقد أخذ حوالي أربعين رطلًا من لحم السَّمكة».

وأضاف قائلًا في نفسه: «كما أخذ معه حربتي كذلك، والحبل كلّه، والآن أخذ الدَّم ينزف مرَّةً أُخرى من سمكتي، وستكون هناك أقراش أُخرى».

لم يكن يودّ أن ينظر إلى السَّمكة بعد أن شوِّهَت، فعندما نُهِش لحمُ السَّمكة شعر كما لو كان لحمه هو قد نُهِش.

قال في نفسه: «ولكنَّني قتلْتُ القرش الّذي هاجم سمكتي، وكان أكبر قرشٍ رأيتُه في حياتي، والله يعلم أنَّني رأيت أقراشًا ضخمة».

وفكّرَ: «كان الحال رائعًا جدًّا بحيث لا يمكن أن يدوم، ليتَ الأمر كان حُلمًا، وأنَّني لم أصطد السَّمكة مطلقًا، وأنَّني مضطجعٌ وحدي على الجرائد في سريري».

وقال:

- «ولكن الرَّجُل لم يُخلَق ليُهزَم، يمكن أن يُحطَّم الرَّجل، ولكن لا يُهزَم».

وقال في نفسه: «إنَّني آسف مع ذلك؛ لأنَّني قتلتُ السَّمكة، والآن، فإنَّ الوقت الصّعب قادم، وأنا لم يعُد لديّ حتّى الحربة، كان ذلك القرش قاسيًا وقادرًا وقويًّا وذكيًّا، ولكنَّني كنتُ أذكى منه»، ثمّ أضاف قائلًا في نفسه: «ربّما لستُ أذكى منه، ولكنَّني أفضل تسليحًا».

قال بصوت عالٍ:

- «لا تفكِّرْ أيُّها الشّيخ، واصِلْ إبحارك، ولكلِّ حادثٍ حديث».

قال في نفسه: «ولكنْ يجب أن أفكّر؛ لأنَّ هذا كلّ ما تبقّى لديّ، هذا ولعبة (البيسبول)، لا أدري كيف سيستحسن (ديماجيو) العظيم الطّريقةَ الّتي ضربْتُ بها القرش على دماغه». وفكَّر: «ليس بالشَّيء العظيم في إمكان أيِّ رجُلٍ أن يفعل ذلك، ولكن هل تظنّ أن يديَّ كانتا عائقًا مثل نتوء عظم الكاحل؟ لا يمكنني أن أعرف، لم يُصَب كاحلي أبدًا بأيِّ سوءٍ ماعدا ذلك الوقت الّذي لدغتني فيه تلك السَّمكة القارصة عندما دسْتُ عليها

وأنا أسبح، فشُلَّ أسفل ساقي، وسبَّبتْ لي ألمًا لا يُحتَمل».

ثمّ قال:

- «فكِّر في شيءٍ سار -أيُّها الشّيخ- فمع كلِّ دقيقة -الآن- أنتَ تقترب من مَسكنكَ، فأنتَ تُبحِر بصورةٍ أخفّ بعد فقدان أربعين رطلًا من لحم السَّمكة».

كان يُدرِك تمامًا ما الّذي سيحدث عندما يصل إلى الجزء الدّاخليّ من الّتيار، ولكنْ ليس ثمّة ما يُمكِن فعله الآن.

وقال بصوتٍ مرتفع:

- «نعم، هنالك ما يمكن فعله، يمكنني أن أربط سكّيني بطرف أحد المجدافَيْن».

وهكذا فعل، وهو يُمسِك بالدّفة تحت ذراعه، وبحبل الشِّراع تحت قدمه.

وقال:

- «الآن، لا أزال شيخًا، ولكنَّني لستُ بلا سلاح».

صار النَّسيم عليلًا الآن، وواصل إبحاره بشكلٍ جيِّد، وراح يُراقِب الجزء الأماميَّ من السَّمكة فقط، وعاوده بعض الأمل.

وفكّرَ: «إنَّ من السُّخف أن نفقد الأمل، أضف إلى ذلك أنَّني أعتقد أنَّه إثمٌ، وفكّرَ: لا تفكّر في الإثم، فهناك ما يكفي من المشاكل الآن من دون الإثم، أَضِفْ إلى ذلك أنَّني لا فَهْمَ لي في الإثم».

«أنا لا فَهْمَ لي فيه، ولسْتُ متأكِّدا ما إذا كنتُ أُؤمن به، ربَّما كان قتل السَّمكة إثمًا، أفترضُ أنَّه كان إثمًا، على الرّغم من أنَّني فعلتُ ذلك من أجل البقاء على قيد الحياة، ومن أجل إطعام أُناس عديدين -ولكن كلُّ شيءٍ هو إثمٌ، إذن- لا تفكِّرْ في الإثم، فقد فاتَ الأوان لذلك، وهناك رجالٌ تُدفع لهم الأجور لاقترافه، دَعْهم يفكِّرون فيه، أمّا أنتَ فقد وُلِدْتَ لتكون صيّادَ سمكٍ، كما أنَّ السَّمكة وُلِدَت لتكون سمكة».

بَيْدَ أنَّه كان يودّ أن يفكِّر في جميع الأشياء الّتي كانت له علاقةٌ بها، ومادام لا شيءَ هناك ليقرأه، ولم يكُن لديه مذياع، فقد أَكثرَ من التَّفكير، واستمر يفكِّر في الإثمّ، ففكّر: «أنتَ لم تقتل السَّمكة لتبقى على قيد الحياة، ولتبيعها من أجل أن تكسب قوتَك، أنتَ قتلتَها من أجل الكرامة، ولكونكَ صيّادَ سمك، لقد أحبَبْتَها عندما كانت تنبض بالحياة، وأحبَبْتَها بعد ذلك، وإذا كنتَ تحبّها فليس إثمًا أن تقتلها، أمْ أنَّ ذلك أكثر

من الإثم!!».

وقال بصوت مرتفع:
- «أنتَ تفكِّر أكثر من اللّازم، أيّها الشّيخ»!

وقال في نفسه: «ولكنَّكَ استمتعْتَ بقتل القرش، فهو يعيش على السَّمك الحيّ، كما تفعل أنتَ، إنّه لا يقتات على الجيف، وليست له شهيّةٌ متنوّعةٌ مثل بعض الأقراش، إنّه جميلٌ ونبيلٌ، ولا يعرف الخوف من أيِّ شيء».

وقال الشّيخ بصوتٍ عالٍ:
- «لقد قتلتُه دفاعًا عن النَّفس، وأَحسنْتُ قَتْلته».

وفكّرَ: «إضافة إلى ذلك، فإنَّ كلَّ شيءٍ يقتلُ كلَّ شيءٍ آخر بطريقةٍ ما؛ فصيد السَّمك يقتلني، بالضَّبط كما يُبقيني حيًّا».

وقال في نفسه: «الصّبيُّ يُبقيني حيًّا، يجب ألّا أخدع نفسي أكثر ممّا ينبغي».

انحنى على جانب القارب، وانتزع قطعةً من لحم السَّمكة من الموضع الّذي نهش منه القرش، ومضغها، ولحظَ نوعيَّتها ومذاقها الطيِّب، كانت متماسكةً وطريَّةً، مثل لحم الغنم، غير

أنَّها ليست حمراء، ولم تكُن فيها ألياف، وحسِبَ أنَّها ستدرُّ عليه أعلى ثمّنٍ في السّوق، ولكن ليست ثمّة وسيلةٌ تمنع انتشار رائحتها في الماء، فأدرك الشّيخ أنَّه مُقبِلٌ على أوقاتٍ عصيبة.

كان النَّسيم يهبُّ على نحوٍ مُطَّرد، ولكنَّه تراجع قليلًا إلى الشَّمال الشَّرقيّ، فعرفَ الشّيخ أنّ ذلك يعني أنَّ النَّسيم لن يهمد. تطلّع الشّيخ إلى البحر أمامه ولكنَّه لم يستطِعْ أن يلمح أيَّةَ أشرعة، ولا هيكلَ مركب، ولا دخانًا منبعثًا من أيِّ باخرة، لم يكُن هناك غير السَّمكات الطّائرة الّتي كانت تثِب من مُقدَّم القارب متّجهة إلى إحدى جانبيه، وغير الحُزم الصَّفراء من أعشاب الخليج، ولم يستطِعْ رؤية حتّى طيرٍ واحد.

لقد أبحرَ على تلك الحال مدّة ساعتَيْن، وهو مستند إلى مؤخَّر القارب، وأحيانًا يمضغ قطعةً من لحم سمكة المَرلين، في محاولةٍ ليستريح، ويتقوّى، وإذا به يرى أوّل قرش من قرشَيْن.

فصرخ بصوت مرتفع:

– «آي».

وقال بصوتٍ عالٍ:

- «غالانوان».

لقد رأى الزَّعنفة الثّانية قادمةً خلف الأولى، فشخّصهما -من الزَّعنفة المثلَّثة السَّمراء وحركات الّذيل الكاسحة- بأنَّهما قرشان من نوع (الغالانو) ذي الأنف المسطَّح العريض، التقطا الرّائحة فأثارتهما، ولكنَّ جوعهما الفظيع أعماهما، فكانا -في أثناء انفعالهما- يفقدان الرّائحة ثمّ يعثران عليها، بَيد أنّهما كانا يقتربان منه طَوال الوقت.

ربط الشّيخ حبل الشِّراع، وثبّت الدّفة، ثمّ التقط المجداف الّذي ربط به السِّكّين، رفعه بقدر ما يستطيع من خفّةٍ؛ بسبب الألم المُعيق في يديه، ثمّ أخذ يفتح يديه، ويطبقهما على المجداف لتَلْيينهما، ثمّ أطبقهما بإحكامٍ بحيث يتلقَّيان الألمَ الآن، ولا يُؤخَذان به على حين غرّة، وراح يراقب القرشَيْن قادمَيْن، وصار الآن في مقدوره أن يرى رأسَيهما المُسطَّحَيْن العريضَيْن بنهايتهما المُدبَّبة مثل مسحاة، ويرى زعانفهما العريضة ذات الحافّة البيضاء، كانا قرشَيْن كريهَيْن، لهما رائحة كريهة، وهما من القتلة، وكذلك من أكلة الجيف، وعندما يكونان جائعين فإنَّهما يعضّان المجداف أو دفّة القارب، إنّهما

من تلك الأقراش الّتي تقطع سيقان السَّلاحف وأيديها عندما تكون السَّلاحف غافية على سطح الماء، وتهاجم الإنسان في الماء عندما تكون جائعة، حتّى إذا لم تكُن له رائحة دم السَّمكة ولا لزوجتها.

قال الشّيخ:

– «آي ، قرشا (غالانو)، تعالا، أيُّها (الغالانوان)».

وأتيا... ولكنَّهما لم يأتيا بالطَّريقة نفسها الّتي أتى بها قرش (الماكو) الأَوَّل، فقد استدار أحدهما واختفى عن النَّظر تحت المركب، وكان في مقدور الشّيخ أن يحسَّ بالمركب يهتزّ عندما راح ذلك القرش ينهش لحم السَّمكة، ويجرّه، وظلّ القرش الآخر يراقب الشّيخ بعينيه الصَّفراويْن اللّوزيتي الشَّكل، ثمّ اقترب بسرعة، فاغِرًا فكَّيْه اللَّذَيْن يشكِّلان نصفَ دائرة؛ لينقضَّ على السَّمكة في الموضع الّذي نُهِشَتْ منه من قبل، وظهر بوضوحٍ الخطُّ في أعلى رأسه الأسمر وظهره حيث يلتقي الدِّماغ بالحبل الشَّوكيّ، فغرز الشّيخ السِّكينَ المربوطة بالمجداف في ذلك التقاطع، وسحبها، ثمّ غرزها مرّةً ثانيةً في عينَي القرش الصَّفراوَيْن الشَّبيهتَيْن بعينَي قِطّ، فتخلّى القرش عن السَّمكة، وانحدر إلى الأعماق بالِغًا ما أخذه، وهو يموت.

كان المركب مازال يهتزّ بفعل التّخريب الّذي كان يفعله القرش الآخر بالسَّمكة، فأطلق الشّيخ حبل الشَّراع لكي يستدير المركب إلى جانبه، ويُخرِج القرش من تحته، وعندما أبصر بالقرش مال على جانب القارب، وطعنه، ولكنَّه لم يُصِب سوى لحم القرش بسبب تصلُّب الجلد، فلم تنفذِ السِّكّين، ولم تؤلِم الضَّربةُ يدي الشّيخ فحسب، وإنَّما كتفه كذلك، غير أنَّ القرش سرعان ما اقترب ورأسه خارجًا من الماء، فطعنه الشّيخ تمامًا في وسط رأسه المسطَّح النِّهاية، عندما خرج أنفه من الماء، واستقرَّ على السَّمكة، وسحب الشّيخ النَّصلَ، وطعن القرش مرّة أخرى في الموضع نفسه بالضَّبط، ولكنَّ القرش ظلّ ملتصقًا بالسَّمكة، وفكّاه مُطبقان عليها، فطعنه الشّيخ في عينه اليسرى، ولكن القرش ظلّ مُتشبِّثًا هناك.

صاح الشّيخ:

- «لا»؟

وأغمد النَّصل بين الفقرات والدَّماغ، إنّها ضربة سهلة الآن، وأَحسَّ بالغضروف يتمزَّق.

قَلَبَ الشّيخ المجدافَ الآن، ووضع نِهايتَه بين فكَّي القرش ليفتحَهما، ثمّ أدار المجداف، وفيما كان القرش يخلّي

السَّمكة، قال الشّيخ:

- «ارحلْ، يا غالانو، اهبطْ إلى عمق ميل، اذهبْ».

ومسحَ الشّيخ نصلَ سكّينه، ووضع المجداف جانبًا، ثمّ تناول حبل الشِّراع فامتلأ الشِّراع بالرّيح، وأعاد المركب إلى مساره.

قال الشّيخ بصوتٍ عالٍ:

- «لابُدّ أنَّهما أخذا رُبعَ السَّمكة، ومن أجود اللَّحم، ليتَ ذلك كان حُلمًا، وأنَّني لم أصطدها... إنَّني متأسِّفٌ لذلك، أيَّتها السَّمكة، فذلك يجعل كلَّ شيءٍ خطأً!»

ثمّ توقَّفَ، ولم يُرِدْ أن ينظر إلى السَّمكة الآن؛ فقد استُنزِفتْ دماؤها، وغُسِلت، فبدت بلون الفضَّة الّتي تُطلى بها المرآة من الخلف، أمّا خطوطها فظلَّت باديةَ للعيان.

قال الشّيخ:

- «ما كان لي أن أوغل بعيدًا هكذا، أيّتها السَّمكة، لا من أجْلك، ولا من أجْلي، أنا آسفٌ، أيَّتها السَّمكة»!

وقال لنفسه: «الآن، انظرْ إلى ربطة السِّكّين، وتأكَّدْ من أنَّها لم تُقطَع، ثمّ هيِّئْ يدكَ جاهزةً؛ لأنّه مازال هناك المزيد

ممّا سيأتي».

قال الشّيخ بعد أن تثبَّتَ من ربطة السِّكّين على طرف المجداف:

- «تمنيّتُ لو كان لديّ حجر لِشَحذ السِّكين، كان عليَّ أن أَجلب حجرًا معي».

وقال في نفسه: «كان ينبغي عليكَ أن تجلب معكَ أشياء عديدة، ولكنَّكَ لم تأتِ بها -أيُّها الشّيخ- والآن لا وقتَ للتّفكير فيما ليس عندكَ، فكِّر فيما تستطيع أن تفعله بما عندكَ».

وقال بصوتٍ عالٍ:

- «أنتَ تُعطيني كثيرًا من النَّصح الجميل، وأنا مللتُ ذلك».

أَمْسَكَ بسُكّانِ المركب تحت ذراعه، وغمسَ كلتا يدَيه في الماء، في حين كان المركب يسير قدمًا، وقال:

- «الله يعلم كَمْ من اللَّحم أخذ ذلك القرش الأخير، فقد صار المركب الآن أخفَّ بكثير»!

ولم يُرِد أن يفكِّر في الجانب السُّفلي المشوّه من السَّمكة،

كان يعرف أنَّ كلَّ هزّةٍ سبَّبها القرش للمركب كانت بمثابة لحمٍ يُنتزَع، وأنَّ السَّمكة الآن قد خلّفتْ وراءَها أثرًا في البحر بِعرض الطّريق السيّار، وستتبعه الأقراش جميعها.

وفكّرَ: «كانت سمكةً تكفي إنسانًا طَوال فصل الشّتاء، لا تفكِّرْ في ذلك، استرحْ فقط، وحاولْ أن تُهيِّئَ يدَيك للدِّفاع عمّا تبقى من السَّمكة، إنَّ رائحة الدَّم من يديّ لا تعني شيئًا الآن بالمقارنة مع كلّ تلك الرّائحة في الماء، أَضِفْ إلى ذلك، فإنَّ الدَّم لا يسيل منهما كثيرًا، وليس هنالك من جرح يعني شيئًا، ونزفُ الدّم من يدي اليسرى قد يحول دون تشنُّجها».

وتساءَلَ الشّيخ في نفسه: «ما الّذي أستطيع أن أفكِّر فيه الآن؟ لا شيء، يجب ألّا أفكّر في أيِّ شيءٍ، وأن أنتظر الأقراش التّالية، ليتَ ذلك كان حُلمًا حقًّا، ولكن مَن يدري؟ فقد ينتهي الأمر بخير».

وكان القرش التّالي الّذي أتى بمفرده ذا أنف أفطس، وتركه الشّيخ ينهش السَّمكة ثمّ غرز السِّكين المربوطة بالمجداف في دماغه، ولكنَّ القرش تراجع فجأة إلى الوراء وهو ينقلب، فانكسر نَصْلُ السِّكّين.

استقرَّ الشّيخ ليقود المركب، ولم ينظرْ حتّى إلى القرش الكبير وهو يغطس ببطءٍ في الماء، باديًا في حجمه الطّبيعيّ أوَّلًا، ثمّ صغيرًا، ثمّ ضئيلًا، كان ذلك المشهد يفتن الشّيخ دائمًا، ولكنَّه هذه المرّة لم يُلقِ عليه حتّى نظرةً واحدة.

قال:

– «لديَّ الخطّاف الآن، ولكنَّه لا ينفع، ولديَّ المجدافان والدّفة والهراوة القصيرة.

وفكّرَ: «الآن، قد غَلبتْني الأقراش، وأنا بلغتُ من الكِبَر حدًّا لا يُمكنني معه ضرب الأقراش بالهراوة حتّى الموت، ولكنَّني سأحاول مادام في حوزتي المجدافان والهراوة القصيرة والدّفة».

وضعَ يديه في الماء مرَّةً أُخرى لينقعهما، وكانَ الأصيلُ يُؤْذِنُ بالانقضاءِ، ولم يرَ شيئًا غير البحر والسَّماء، وكانت ثمّة ريحٌ في السَّماء أكثر من ذي قبل، وراوده الأمل في أن يرى اليابسة.

وقال:

– «إنَّكَ مُتعَبٌ، أيُّها الشّيخ؛ إنَّك متعبٌ في أعماقك حتّى العظم».

أسئلةُ الفصلِ السّابعِ

1. على الرّغم من أنّ الشّيخ قد قتل السّمكة، فإنَّ مشاعرَ ودٍّ وَإجلالٍ كانت تتراكمُ في نفسه نحوها، وكأنّ بقاءَهُما معًا وحيدين كُلَّ هذه الفترة قد ألقى عليهما ظِلال صداقةٍ قديمةٍ قِدَمَ البحرِ والإنسان. استخرِجْ من هذا الفصلِ ما يُعبّرُ عن هذه المشاعرِ الصّافيةِ، وسَجّلْهُ في كرّاسِكَ، ثُمَّ ناقِشْ زُملاءَكَ في دلالاته.

2. بدأ الفصلُ هادِئًا، ثُمّ أخذَ التّوتّرُ يتصاعَدُ فيه حتّى بلغ حَدًّا لا يستطيعُ معه القارئُ أن يتوقّف عن القراءةِ.

3. اذكُرِ أسبابَ ذلكَ، وتتبّعْ تصاعُدَ التّوتُّرِ، ثُمَّ بَيِّنْ كيف هي مشاعِرُكَ نحوَ الشّيخِ وهو يُصارِعُ عَدوًّا جديدًا يُدَمِّرُ حُلمَهُ خطوةً خطوةً، ويقضي على سَمكتِهِ شيئًا فشيئًا؟

4. في الصّفحة (89) تتجلّى الطّبيعةُ البَشريّةُ حين يغلبُها اليأسُ والنّدمُ، ثُمّ حينَ تُحاولُ أنْ تستجمِعَ قواها وعزمَها، ثُمّ حين تُحاولُ أنْ تُهدِّئَ من روعها، وقد مثّلَ الشّيخُ هذه الحالاتِ أجملَ تمثيلٍ وأبلغَهُ. اقرَأْ هذه الصّفحةَ، وناقِشْ زُملاءَكَ فيما انتابَ الشّيخَ من مشاعر، ثُمّ بيّنْ رأيكَ في ذلك.

5. عُدْ إلى الصّفحة (95) وبيّنْ ما الإحساسُ الّذي غلبَ على الشّيخ فيها، ثُمّ بيّنْ كيف ينعكسُ ذلكَ على القارئِ؟

6. بدأ الشّيخُ بِجَرِّ السّمكةِ إلى جانبِ القاربِ، وربطَ رأسها إلى مُقَدَّمِهِ، وقال: «أريد أن أراها، وألمسها، وأحسّ بها»، فما سببُ قولِهِ هذا؟

7. «أبصرَ الشّيخُ بالقِرشِ قادِمًا، وأَدركَ أنَّه قِرشٌ لا يتملَّكُه الخوفُ على الإطلاقِ، ويفعلُ ما يرغبُ فيه بالضَّبطِ»، فما الّذي فعلَهُ الشّيخُ كي يتّقي شَرَّ هذا القرشِ؟

8. «إنَّكَ مُتعَبٌ، أيُّها الشّيخ؛ إنَّك متعبٌ في أعماقك حتّى العظم». هكذا ينتهي الفصلُ السّابعُ، فكيف يمكنُ لكَ أنْ تَتنبّأَ بالنّهايةِ الآنَ؟

الفصلُ الثّامنُ

لم تهاجمه الأقراش ثانيةً حتّى قبيل غروب الشَّمس، فقد رأى الشّيخ زعنفتَيْن سمراوَيْن قادمتَيْن في اتّجاه المسار الواسع الّذي لابدَّ أن السَّمكة تُخلِّفه وراءَها في الماء، ولم يكُن هذان القرشان يتتبّعان الرّائحة، وإنّما كانا متّجهَيْن نحوَ المركب مباشرة، وهما يسبحان جنبًا إلى جنب.

ثبّتَ الشّيخ سُكّان المركب، وربط حبل الشِّراع، ومدَّ يده لتناول الهراوة من تحت مؤخَّر القارب، كانت تلك الهراوة في الأصل مِقبضَ مجدافٍ أُخِذَتْ من مجدافٍ مكسور، ونُشِرَتْ ليكون طولها حوالي قدمَيْن ونصف، ولم يكُن في وسعه استعمالها بصورةٍ مؤثِّرةٍ إلّا إذا مسكها بيدٍ واحدةٍ؛ بسبب مقبضها، فقبضَ عليها جيّدًا بيده اليمنى، وأطبق عليها يده، فيما كان يراقب القرشَيْن قادمَيْن، وكان كلاهما من نوع الـــ(غالانو).

وفكّرَ: «يجب أن أترك الأوّل يُمسِك بالسِّمكة جيِّدًا، ثمّ أضربه على أرنبةِ الأَنف أو على أُمِّ رأسه».

اقتربَ القرشان معًا، وحينما رأى الأقرب منهما إليه يفتح

فكّيه، ويغرزهما في جانب السَّمكة الفضيّ رفعَ الهراوة عاليًا، وأهوى بها ثقيلةً على أُمِّ رأسِه العريض، وأحسّ بمقاومة مَطّاطيّة حين أصابته الهراوة، ولكنَّه أحسّ كذلك بصلابة العظم، فضرب القرشَ مرّةً أُخرى بقوَّةٍ على أرنبةِ الأنف، فيما كان ينزلق إلى الأسفل بعيدًا عن السَّمكة.

وكان القرش الآخر يختفي مرَّةً، ويظهر مرَّة، والآن اقترب مرّةً أُخرى فاغِرًا فكّيه، وكان في وسع الشّيخ أن يرى قِطعًا من لحم السَّمكة وهي تتساقط بيضاءَ من زاوية فكَّيه عندما انقضّ على السَّمكة، وأطبق عليها فكّيه. انهالَ الشّيخ بالهراوة عليه، فأصاب رأسه فقط، ونظرَ القرشُ إليه، ونهشَ اللَّحم، فهوى الشّيخ بالهراوة عليه مرَّةً أُخرى، فانسابَ مُبتعِدًا ليبتلع اللَّحم، ولم يُصِب الشّيخُ سوى الجزء المطّاطيّ الصَّلب من رأسه.

وقال الشّيخ:

– «هيا، أيُّها الغالانو، اقتربْ مرَّةً أُخرى».

اقترب القرش مُسرِعًا، فضربه الشّيخ، بينما كان يطبق فكَّيْه على السَّمكة، لقد رفع الهراوة إلى أعلى ما يستطيع، وضربه بشدَّة، وفي هذه المرَّة أحسَّ الشّيخ بالعظم في قاعدة الدِّماغ، فضربه مرَّة أُخرى في الموضع نفسه، فيما راح القرش ينهش

اللَّحم بخمول ثمّ ينزلق إلى الأسفل بعيدًا عن السَّمكة.

ظلَّ الشّيخ يترقّب عودته، ولكن لم يظهر أيٌّ من القرشَيْن، ثمّ رأى أحدهما على سطح الماء وهو يسبح في دوائر، ولم يرَ زعنفة الآخر.

وفكّرَ: «لم يكُن في وسعي أن أتوقَّع قتلهما، كان في وسعي أن أتوقَّع ذلك أيام شبابي، ولكنّي أصبتهما كليهما إصابةً بالغة، ولن تتحسَّن حالةُ أيٍّ منهما، ولو كان في استطاعتي أن أستعمل مضربًا أمسكه بكلتا يديّ، لكان في مقدوري أن أقتل الأَوَّل بالتّأكيد، حتّى في أيّامي هذه».

لم يُرِد أن ينظر إلى السَّمكة، فهو يعلم أنَّ نصفها قد دُمِّر، وكانت الشَّمس قد غربت فيما كان هو في خضمِّ المعركة مع القرشَيْن.

قال:

– «سرعان ما سيهبط الظَّلام، وحينئذٍ لابُدَّ أن أرى لمعان أضواء (هافانا)، أمّا إذا كنتُ بعيدًا جدًّا في جهة الشَّرق، فإنَّني سأرى أضواءَ أحد الشّواطئ الجديدة».

وفكّرَ: «لا يمكن أن أكون بعيدًا إلى حدٍّ كبيرٍ الآن، آمل

ألّا يكون القلق قد انتاب أحدهم بشأني، ليس هنالك سوى الصّبيّ الّذي سيقلق، طبعًا، ولكنّي مُتأكِّدٌ من أنَّه يثق بي، سوف يقلق العديد من الصَّيّادين الشُّيوخ»، وأضاف قائلًا في نفسه: «وعَددٌ آخر من غيرهم كذلك، فأنا أعيش في بلدةٍ طيِّبة».

لم يعُد في استطاعته أن يتحدَّث إلى السَّمكة بعد الآن؛ لأنَّها قد شوِّهت بصورة سيّئة، ثمّ خطر في ذهنه خاطر، فقال:

– «يا نصفَ سَمكة!... أيَّتها السَّمكة الّتي كُنْتِ!.. أنا آسف لأنَّني أوغلتُ بعيدًا في البحر، لقد حطَّمتُكِ وحطَّمتُ نفسي، ولكنَّنا قَتلْنا العديدَ من الأقراش، أنا وأنتِ، وأصبنا عددًا آخر، كم قرشًا قتلتِ في حياتكِ، أيَّتها السَّمكة العجوز؟ فأنتِ لا تمتلكين ذلك الرُّمح في رأسكِ من دون غاية!

وأحبَّ أن يفكِّر في السَّمكة، وفيما تستطيع أن تفعله بقرشٍ من الأقراش لو كانت تسبح طليقةً... وفكّرَ: «كان ينبغي عليّ أن أقطع رمحها لأقاتل به الأقراش، ولكن لم يكُن لديّ ثمّة فأسٌ، ولا سكّين».

«غير أنَّه لو كان لديَّ فأسٌ أو سكّينٌ واستطعتُ أن أربط

رمحكِ إلى طرفِ مجداف، فأيَّ سلاحٍ رائعٍ سيكون! إذن لكُنّا قاتلنا الأقراش معًا. ما الّذي ستفعلينه الآن إذا أقبلتِ الأقراشُ في اللّيل؟ ما الّذي تستطيعين أن تفعليه؟»

أجاب:

– «أقاتلهم.. سأقاتلُهم حتّى الموت».

ولكن الآن في الظُّلمة، ولا وهجَ، ولا أضواءَ في المنظور، وليس هناك سوى الرّيح، واندفاع الشِّراع المتَّصل، أحسَّ كما لو أنَّه قد مات، وشَبَكَ يدَيْه معًا، وتحسَّسَ راحتَيْه، لم تكونا ميّتتَيْن، وكان في إمكانه أن يستشعر ألمَ الحياة بمجرَّد فتحهما وإطباقهما، وأَسندَ ظهره إلى مؤخَّر القارب، فأدرك أنّه ليس ميّتًا، فقد أَخبرَتْه كتفاه بذلك.

قالَ في نفسه: «سأوفي كلّ مانذرته إذا ما اصطدتُ السَّمكة، ولكنَّني الآن متعبٌ جدًّا لدرجة أنّي لا أستطيع فعل شيء، ومن الأفضل لي أن أتناول الكيس، وأضعه على كتفيّ».

اضطجعَ في مؤخَّر المركب، وأمسكَ بالدّفة، وراح يترقَّب قدوم وهج الأضواء في السَّماء، وفكّرَ: «لديَّ نصفُ السَّمكة، وربّما يحالفني الحظُّ لإيصال هذا النِّصف إلى الشّاطئ، لابُدَّ

أن يحالفني بعض الحظّ»، ثمّ قال: «لا، لقد خنْتَ حظَّكَ عندما أوغلتَ بعيدًا جدًّا في البحر».

وقال بصوتٍ عالٍ:

– «لا تكُن متشائمًا، وابقَ متيقّظًا، وواصلِ القيادة، فربَّما مازال لديكَ كثير من الحظِّ».

وقال:

– «أودّ لو أشتري شيئًا من الحظّ، إنْ كان هناك أيُّ مكانٍ يُباع فيه».

وسألَ نفسه: «بماذا أستطيع أن أشتريه؟ هل يمكنني أن أشتريه بحربَةٍ ضائعةٍ أوْ سكّينٍ مكسورٍ أوْ يَدَيْن مُصابتَيْن؟»

وقال:

– «ربّما، لقد حاولتَ أن تشتريه بأَربعة وثمّانين يومًا أمضيتَها في البحر، وكانت تلك الأيّام على وشك أن تَبيعه لك كذلك».

وفكّرَ: «يجب ألّا أُفكِّر في هذا الهراء، فالحظُّ هو شيء قد يأتي في أشكالٍ متعدِّدة، ومَن الّذي يستطيع أن يتعرَّف عليه؟ كنتُ سآخذ شيئًا منه في أيِّ شكلٍ كان، وسأدفع الثّمن

الّذي يطلبون». وفكّرَ: «أتمنّى لو أنّني أستطيع أن أرى وهجَ الأضواء، إنّني أتمنّى أشياءَ كثيرةً جدًّا، ولكن هذا هو الشَّيء الّذي أتمناه الآن»، وحاولَ أن يستلقي بوضعٍ مُريحٍ أفضل ليقود القارب، وأدرك من ألمه أنّه ليس ميّتًا.

لاحَ له وهجُ أضواءِ المدينة المنعكسة على صفحة الماء في حوالي السّاعة العاشرة على الأغلب، وقد بدت تلك الأضواء أوّل الأمر مثل الضَّوء الّذي يظهر في السّماء قُبيل بزوغ القمر، ثمّ صارت ثابتةً، ويمكن رؤيتها عبر المحيط الّذي غدا الآن هائجًا بسبب اشتداد الرّيح، قادَ المركبَ صوب الوهج، وقدَّر أنّه سرعان ما يبلغ حافّة المجرى.

وفكّرَ: «الآن انتهى الأمر، من المحتمل أن تهاجمني الأقراش مرَّةً أُخرى، ولكنْ ما الّذي يستطيع أن يفعله الرَّجل الأعزل في الظَّلام؟»

أمسى الشّيخ الآن مُتصلِّبًا ومُتقرِّحًا، وأخذَتْ جراحه والأجزاء المتوتِّرة في جسمه تؤلمه بسبب برودة اللّيل، وفكّرَ في نفسه: «آمل ألّا أضطرّ إلى القتال مرَّةً أُخرى، آمل ألّا أضطرّ إلى القتال مرَّةً أُخرى».

ولكن، عند منتصف اللّيل، خاض الشّيخ غمار معركة، وهذه المرَّة أدركَ أن قتاله بلا جدوى؛ فقد جاء قطيعٌ من الأقراش، ولم يكُن في إمكانه أن يرى سوى الخطوط الّتي تخلِّفها زعانفها في الماء، وسوى أَلَقها الفوسفوريّ وهي تنقضُّ على السَّمكة، فانهال بالهراوة على الرؤوس، وسمع طقطقة فكوكها، وأحسّ باهتزاز المركب وهي تنهش السَّمكة تحته، وفي يأسٍ، ضربَ بالهراوة ما يستطيع أن يستشعره، ويسمعه، وأحسَّ بشيءٍ يُمسك بالهراوة، ويأخذها من يده.

انتزعَ مقبض الدفّة، وراح يضرب، ويهشّم به، وهو يُمسكه بكلتا يديه، ويهوي به عليها المرَّةَ تلو الأُخرى، ولكنَّ الأقراش وصلتِ الآن إلى مُقدَّم القارب وهي تتقاطر وحدانًا وزُرافاتٍ، وتنهش قطع اللَّحم الّتي بدَتْ متوهِّجة تحت البحر، فيما راحت الأقراش تتوافد مرَّةً أُخرى.

وأخيرًا، انقضَّ أحد الأقراش على رأس السَّمكة نفسه، فأدركَ الشّيخ أنَّ الأمر قد انتهى، فهوى بمقبض الدّفة على رأس القرش الّذي استعصى على فكّيه تمزيق رأس السَّمكة لكثافته. ضربه به مرَّةً وثانيةً وأُخرى، وسمع مقبض غالانو وهو ينكسر، فطعن القرش بالعَقِب المُتشظّي، وأحسَّ بأنَّه

ينغرز في القرش، فأدرك أنّه حادٌّ، فطعنه به من جديد، فما كان من القرش إلّا أن ترك السَّمكة، وترنَّح مُبتعِدًا، وكان هذا آخر قرش من القطيع الّذي أتى، فلم يعُد ثمّة شيءٌ يؤكَل.

تقطّعت أنفاس الشّيخ، وأحسَّ بمذاقٍ غريبٍ في فمه، إنّه مذاق نحاسيٌّ وحلو، فخاف منه لحظة، ولكن لم يبقَ منه الكثير.

بصقَ الشّيخ في المحيط، وقال:

– «كلوا هذا يا أقراش الغالانو، واحلموا بأنَّكم قتلتم رجلًا».

تأكَّد له أنَّه الآن هُزِمَ هزيمةً نهائيّة، وليس من بلسمٍ لذلك، فعاد إلى مؤخَّر القارب، ووجد أنَّ طرف المقبضِ المثلوم يمكن إدخاله في فتحة الدّفّة بصورة تكفي لقيادة المركب، ألقى بالكيس حول كتفَيْه، ووضعَ المركب في مساره، وأبحرَ بخفّة الآن، ولم تُراودْه أيّةُ أفكار، ولم تُخالجْه أيَّةُ مشاعر من أيِّ نوع، لقد انتهى كلُّ شيءٍ الآن، فأبحرَ بالقارب ليبلغ به مرفأه بأفضل وبأذكى ما في وسعه. وفي أثناء اللَّيل نهشت الأقراش هيكلَ السَّمكة العظميّ مثلما يلتقط شخصٌ ما الفُتاتَ من المائدة، لم يُعرْها الشّيخ انتباهًا، ولم يُبدِ اهتمامًا بأيِّ شيءٍ

ماعدا قيادة المركب، فلاحظَ فقط كيف يُبحِر المركب الآن بخفّة وسرعة جيِّدة بعد أن تخفَّف من حملٍ ثقيل.

وفكّرَ: «إنَّه مركبٌ جيّد، فهو قويٌّ، ولم يتضرَّر بأيِّ شكلٍ باستثناء مقبض غالانو، وهذا يمكن استبداله بسهولة».

أَحسَّ بأَنَّه داخل التّيار حاليًا، وكان في مقدوره أن يرى الأضواء المُنبعِثة من التّجمُّعات السُّكّانيّة الشّاطئيّة المُمتدَّة على طول السّاحل، وعرف أين هو الآن، فلم يبقَ للوصول إلى المنزل شيءٌ يُذكَر.

وفكّرَ: «الرّيح صديقتنا على أَيّة حال»، ثمّ أضافَ: «أحيانًا، والبحر العظيم مع أصدقائنا وأعدائنا». وقال في نفسه: «والفِراش.. الفِراش صديقي، الفِراش لا غير.. سيكون الفِراش شيئًا عظيمًا»، وفكَّرَ: «يبدو الأمر سهلًا حينما تُهزَم، لم أُدرِك أبدًا أَنَّه بتلك السّهولة». ثمّ تساءلَ في نفسه: «ما الّذي هزمَكَ؟»

وأجاب بصوت مرتفع:

– «لا شيء.. إنّي أوغلتُ بعيدًا جدًّا».

وعندما دخل بمركبه المرفأ الصّغير، كانت مصابيح (مقهى

الشُّرفة) مُطفأة، فأدركَ أنَّ كلَّ فردٍ قد أوى إلى فراشه، وكان النَّسيم قد تصاعد باطِّرادٍ، وصار الآن ريحًا عاتيةً. ورغم ذلك كان الهدوء يلفُّ المرفأ، فاتّجه بالمركب صوب البقعة الصَّغيرة المرصوفة بألواح الخشب تحت الصُّخور، ولم يكُن ثمّةَ مَن يساعده، ولهذا سحبَ القارب إلى أقصى ما يستطيع، ثمّ خرج منه، وربطه إلى صخرة من الصُّخور.

خلعَ السّارية، وطوى الشِّراع، وربطه، ثمّ حمل السّارية على كتفه، وأخذ بالصّعود، في تلك اللَّحظة أَدركَ عمقَ عنائه، فتوقّف لحظةً، وأَلقى نظرةً إلى الوراء، فرأى -في أضواءِ الشّارع المُتلألئة- ذيلَ السَّمكة العظيم مُنتصِبًا خلف مؤخَّر المركب، رأى الخطَّ الأبيض العاري لعمودها الفقريّ، وكتلةَ الرَّأس القاتمة مع الرُّمح البارز، وذلك العري بين الّذيل والرَّأس.

راح يصعد مرَّةً أُخرى، وسقطَ عند القمَّة، فبقي مُستلقيًا بعض الوقت، والسّارية على كتفه، وحاولَ أن ينهض، ولكنّ ذلك كان من الصُّعوبة بمكانٍ، فجلسَ هناك والسّارية على كتفه، وأخذ ينظر إلى الطَّريق، وفي الجانب الآخر من الطَّريق مَرّتْ قطّةٌ تسعى في مناكبها، فراقبها الشّيخ، ثمّ جعل يراقب الطَّريق فقط.

وأخيرًا أَنزلَ السّارية على الأرض، ووقفَ مُنتصبًا، ورفعَ السّارية، ووضعها على كتفه، ومضى في الطَّريق، وكان عليه أن يجلس خمسَ مرّاتٍ قبل أن يصلَ إلى كوخه.

وفي داخل الكوخ، أسند السّارية إلى الحائط، وفي الظَّلام عثرَ على قنّينةِ ماءٍ، وشربَ منها، ثمّ استلقى على الفراش، وجرّ البطّانيّة إلى كتفَيْه ثمّ إلى ظهره وساقَيْه، ونام فوق الجرائد، ووجهه إلى الأسفل، وذراعاه ممدودتان، وراحتا يدَيْه إلى الأعلى.

كان نائمًا عندما أطلّ الصَّبيُّ من الباب في الصَّباح، وكانت الرّيح تهبُّ بشدّةٍ بحيث تعذَّرَ على القوارب الخروجُ للصَّيد؛ فنام الصَّبيُّ حتّى وقتٍ متأخِّر، ثمّ جاء إلى كوخ الشّيخ مثلما كان يفعل كلّ صباح، ولاحظَ الصَّبيُّ أنَّ الشّيخ كان يتنفَّس، ثمّ لمحَ يدَيِ الشّيخ، فأخذ يبكي، وخرجَ بهدوءٍ تامٍّ، وذهب ليجلب شيئًا من القهوة، وطَوالَ الطَّريق كان يبكي.

تجمَّعَ عدَّة صيّادين حول المركب وهم ينظرون إلى ما كان مربوطًا إلى جانبه، وكان أحدهم في الماء، وسرواله مطويٌّ إلى الأعلى، وهو يقيس طول هيكل السَّمكة بحبلٍ.

لم يهبطِ الصَّبيُّ إلى المركب، فقد كان هناك من قبل، وكان أحد الصَّيّادين يحافظ على المركب نيابةً عنه.

وصاح أحد الصَّيادين:

- «كيف حاله؟»

فردّ الصَّبيُّ:

- «نائم».

ولم يبالِ الصَّبيُّ بأن يروه وهو يبكي.

- «لا تدع أحدًا يزعجه».

وصاح الصَّيّاد الّذي كان يقيس السَّمكة:

- «طولها ثماني عَشْرةَ قدمًا من الأنف إلى الّذيل».

قال الصَّبيّ:

- «أُصدِّق ذلك».

ذهب الصَّبيُّ إلى مقهى الشُّرفة، وطلبَ علبةَ القهوة:

- «ساخنةً مع كثيرٍ من الحليب والسُّكَّر فيها».

- «أيّ شيءٍ آخر»؟

- «لا، سأرى فيما بعد ما الّذي يستطيع أن يأكل».

قال صاحب المقهى:

- «يا لها من سمكة! ليس ثمّةَ سمكةٌ مثلها قطّ، والسَّمكتان اللّتان اصطدتَهما يوم أمس طيبتان كذلك».

قال الصّبيّ وقد راح يبكي:

- «واأسفاه على سمكتَيّ».

وسأله صاحب المقهى:

- «أتريد أن تشرب شيئًا من أيِّ نوع»؟

قال الصَّبيّ:

- «لا، قُلْ لهم ألّا يزعجوا (سنتياغو)، سأعود».
- «بلِّغْه شديد أسفي».

قال الصَّبيّ:

- «شكرًا».

حمل الصَّبيُّ علبة القهوة السّاخنة إلى كوخ الشّيخ، وجلس بالقرب منه حتّى أفاق من نومه، بدا -مرّةً- كما لو أنَّه استيقظ، غير أنّه عاد يغطُّ في نومٍ عميق، فذهب الصَّبيّ إلى الجانب الآخر من الطَّريق؛ ليستعير بعض الخشب لتسخين القهوة.

وأخيرًا استيقظَ الشّيخ.

قال الصَّبيّ:

- «لا تنهضْ، اشربْ هذا».

وصبَّ شيئًا من القهوة في كأس.

أخذها الشّيخ وشربها، وقال:

- «لقد هزموني، يا (مانولين).. لقد هزموني حقًّا».
- «ولكنَّها لم تهزمْكَ، ليست السَّمكة».
- «لا. حقًّا، كانت الهزيمة بعد ذلك».
- «إنَّ (بدريكو) يحافظ على المركب والعُدَّة، ما الّذي تريد أن نفعل بالرَّأس؟»
- «ليقطّعه (بدريكو) إلى أجزاء لتستعمل في مصايد السَّمك».
- «ورمح السَّمكة ؟»
- «احتفظْ به، إذا شئتَ».

قال الصّبيُّ:

- «أريده.. والآن يجب أن نضع خططنا للأشياء الأُخرى».
- «هل بحثوا عنّي؟»
- «طبعًا، بخفر السَّواحل وبالطّائرات».

قال الشّيخ:

- «المحيط كبير جدًّا، والمركب صغير، وتصعب رؤيته».

ولاحظَ متعة التَّحدّث مع شخصٍ ما، بدلًا من التَّكلّم فقط إلى نفسه وإلى البحر، وقال:

- «لقد افتقدتُكَ، ما الّذي اصطدتَ؟»
- «سمكة في اليوم الأوّل، وسمكة في اليوم الثاني، وسمكتَيْن في اليوم الثّالث».
- «جيّد جدًّا».
- «من الآن سنذهب للصَّيد معًا».
- «لا، أنا لسْتُ محظوظًا.. لم أعُد محظوظًا».

قال الصَّبيّ:

- «ليذهب الحظُّ إلى الجحيم، سأجلب الحظَّ معي».
- «وماذا سيقول أَهلك؟»
- «لا أبالي، اصطدْتُ سمكتَيْن أمس، ولكنّنا سنصطاد السَّمك معًا من الآن، لأنّه مازال هناك الكثير الّذي يجب أن أتعلّمه».
- «يلزمنا رمحٌ قاتِلٌ جيّدٌ نأخذه معنا في المركب دائمًا، يمكنكَ أن تصنع النَّصل من صفائح التعليق في سيّارة

فورد قديمة، ونستطيع شحذه في (غوانا باكاوا)، وينبغي أن يكون حادًّا وألّا يكون رقيقًا لئلّا ينكسر، فقد انكسرتْ سكّيني».

- «سأحصل على سكّينٍ أُخرى، وأجعلهم يشحذون الصفيحة، كم يومًا ستستمر هذه الرّيح الشّديدة؟»
- «ربّما ثلاثة أيام، وربّما أكثر».

قال الصّبيّ:

- «سأُرتِّب كلَّ شيء، لتبرأ يداك، أَيُّها الشّيخ».... «أعرف كيف أَعتني بهما، اللّيلة الماضية بصقتُ شيئًا غريبًا، وأَحسستُ بأنَّ شيئًا ما قد انكسر في صدري».

فقال الصّبيّ:

- «اعتنِ بذاك أيضًا، استرحْ، أَيُّها الشّيخ، وسأجلب لكَ قميصكَ النّظيف، وشيئًا لتأكل».

قال الشّيخ:

- «اجلبْ معك أيًّا من الصُّحف الّتي صدرتْ في الوقت الّذي تغيّبتُ فيه».
- «يجب أن تتعافى بسرعة، لأنَّ هنالك الكثير الّذي أستطيع أن أتعلّمه، وأنتَ يمكنكَ أن تعلّمني كلَّ شيء،

كم عانيتَ؟»

قال الشّيخ:

- «كثيرًا».

قال الصَّبيّ:

- «سأجلب الطّعام والجرائد، استرِحْ جيّدًا، أَيُّها الشّيخ، سأجلب الدّواء من الصَّيدليّة ليدَيْكَ».
- «لا تنسَ أن تُخبر بدريكو بأنَّ رأس السَّمكة له».
- «لا، سأتذكَّر ذلك».

وبعد أن خرج الصَّبيُّ من الباب، وسار في الطَّريق الصَّخريّة المرجانيّة، راح يبكي مرَّةً أُخرى.

وعصْر ذلك اليوم، كانت مجموعةٌ من السُّيّاح في مقهى الشُّرفة يطلّون على الماء من خلال العلب الفارغة والأسماك الميِّتة؛ رأتْ امرأةٌ منهم عمودًا فقريًّا عظميًّا أبيض وفي آخره ذيلٌ ضخمٌ، كان يرتفع، ويتأرجح مع المدّ، في حين أخذتِ الرّيح الشَّرقيّة تهبُّ بقوّةٍ وعنادٍ على البحر خارج مدخل الميناء، فسألتِ المرأة نادلًا وهي تُشير إلى هيكل السَّمكة العظميّ الّذي صار الآن من النُّفايات الّتي تنتظر أن يجرفها

المدُّ: «ما هذا»؟

قال النّادل، وهو يحاول أن يشرح لها ما حدث:

- «القرش!»

- «لم أَكُن أعرف أَنَّ للأقراش أذنابًا وسيمة بهذا الشَّكل الجميل».

قال زوجها:

- «ولا أنا».

وفي آخر الطَّريق، كان الشّيخ نائمًا في كوخه مرَّةً أُخرى، وكان مازال نائمًا على وجهه عندما جلس الصَّبيُّ بالقرب منه، وراح ينظر إليه.

كان الشّيخ يحلم بالأُسود.

أسئلةُ الفصلِ الثّامنِ

1. بعدما كانت السّمكةُ غَريمتَهُ، صارت صديقةً له، وفاضَتْ مشاعرُهُ بالتّعاطُفِ الشّديدِ معها. استخرِجْ من هذا الفصلِ ما يدلُّ على ذلك، ثُمّ بيّن كيف يعكسُ هذا دواخِلَ الشّيخِ ومشاعرَهُ؟

2. في هذا الفصلِ، والرّوايةُ تُقارِبُ على نهايتها، وقد أنهكَ التَّعَبُ الشّيخَ، ونالَ منه اليأسُ بالفوز بشيءٍ من السّمكة، ضربَ الشّيخُ مثلًا فَريدًا في الشّجاعة والإصرارِ، ففي أيّ صفحةٍ ترى هذا الأمرَ مبسوطًا وواضِحًا؟

3. عاد الشّيخُ إلى كوخِهِ بعد أنْ هدّهُ التّعبُ والجِراحُ، وتركَ على الشّاطئ أثرَ شجاعته وقوّته، وغاب في النّوم حتّى أيقظه الصّبيُّ. صِفْ مشاعرَ الصّبيِّ وصيّادي القرية نحو (سانتياغو)، وقارِنْ مشاعِرَ النّاسِ في القريةِ بمشاعرِكَ.

4. قالَ الشّيخُ: «لقد هزموني، يا (مانولين).. لقد هزموني حقًّا». اختلف النّاسُ حول هذا، فبعضُهم يرى أنّ (سانتياغو) لَمْ يُهْزَمْ، بَلْ سجّلَ نصرًا أسطوريًّا لا يكادُ يُصدّقه أحدٌ، وآخرون رأوا أنّ (سانتياغو) هُزِمَ أمامَ قوى

الطّبيعةِ الّتي لا تُقْهَرُ. تحدَّثْ عن هذا، وبيّنْ رأيَكَ، ثُمّ دافِعْ عَنْ وجهةِ نَظرِكَ.

5. ما الّذي تستخلصه من معركة الشّيخ مع القرشين منه نوع الغالانو، وَهُما يهاجمان السّمكة؟

6. لماذا لم يَعُدْ في مَقدورِ الشّيخ أن يُخاطبَ سمكتَهُ بعد هجومِ القرشين عليها؟

7. ما الدّلالاتِ الّتي تشيرُ إليها العبارةُ الآتيةُ: «ولكنَّ الأقراش وصلتِ الآن إلى مُقدَّم القارب وهي تتقاطر وحدانًا وزُرافاتٍ، وتنهش قطع اللَّحم الّتي بدَتْ متوهِّجة تحت البحر، فيما راحت الأقراش تتوافد مرَّةً أُخرى»؟

8. ما الّذي دفعَ الشّيخَ إلى قولِهِ: «كلوا هذا يا أقراش الغالانو، واحلموا بأنَّكم قتلتم رجلًا»؟

9. ما الّذي أدركَهُ الشّيخُ بعدَما ربطَ مركبَهُ إلى صخرةٍ من صخور المَرفأ؟ وما سببُ هذا الإدراكَ؟

10. «إذا أيقَنْتَ بينَكَ وبينَ نَفسِكَ أنّ هزيمتَكَ واقِعةٌ لا محالةَ، فتَقدَّمْ إليها بشجاعةٍ وصبرٍ». كيفَ جسّدَ (سانتياغو) هذه المقولةَ في رواية «الشّيخِ والبحرِ»؟

11. تمَّ تحويلُ رواية الشّيخ والبحر إلى فلمٍ في سنةِ 1959، ثُمّ في سنةِ 1990، وكان الفِلْمُ الثّاني من بطولة المُمثّل (أنتوني كوين».

حاوِلْ أن تُشاهِدَ الفِلْمَ مع زُملائِكَ، ثُمّ اعقد جلسةً نقاشيّة حول الرّواية والفِلْم، وأيّهما كان أكثر قُدرةً على نقلِ إحساس (سانتياغو) وصراعه، ومُعاناته، مُعَلِّلًا ما تقولُ.